عسير

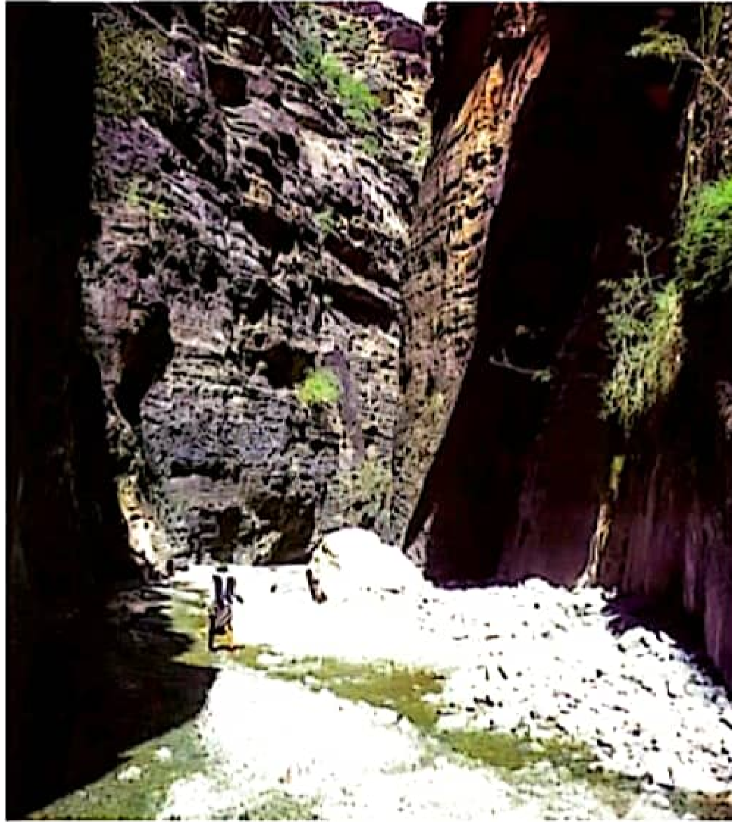
غير المكتشفة

تيري موجيه



عسير
غير المكتشفة

عضيّب ..





هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

صورة صفحة العنوان: هذا الوادي الوعر يشق طريقه بين أراضي قبيلة الريث.
الصفحتان المتقابلتان السابقتان: المسارات الجبلية المؤدية إلى أسفل الجرف المتجه نحو جبال تهامة في منطقة قبيلة قحطان.
بالأسفل: أبناء قبيلة ربيعة في وادي ضلع يحتفلون بأحد الأعراس.



المحتويات



تمهيد

تيري موجيه



لقد استغرق الأمر مني عشر سنوات لأدرك أن وظيفة المهندس في مجال الحاسب الآلي كانت تقتل روح المغامرة بداخلي وتحولني إلى مجرد رجل آلي، وفي عام ١٩٨٠م اتخذتُ قرارًا غيّر مسار حياتي؛ تركت مهنتي الواعدة واغتنمت الفرصة الأولى التي سمحت لي بالسفر إلى الخارج والنأي بنفسي عن رتابة التجربة المألوفة، ذهبت إلى المملكة العربية السعودية للعمل في مشروع كان يُعدُّ فرصة العمر في ذلك الحين، وهو مشروع يتعلق بنظام (الشاهين) الخاص بالدفاع الجوي لحكومة المملكة، وبعد مدة وجيزة علمتُ بنقلي إلى الطائف، وهي مدينة في جبال الحجاز ومنتجع صيفي للملك، وكان عليَّ المكوث فيها لعشر سنوات.

أخبرني الأصدقاء المغتربون بعد وقت قصير من وصولي إلى المملكة بوجود شعب (بدائي) رصدته مروحية في أثناء رحلتها إلى أحد مراكز أبحاث التعدين عند سفح صدع محفوف بالمخاطر.

كانوا مستقرين في مكان ما حول مدينة خميس مشيط في منطقة تقطعها المضائق والأودية العميقة مع المخابئ التي يفضلون العيش بداخلها، وكان من السهل تقبُّل فكرة أن تعيش مجموعة من البشر في منطقة منعزلة، أو ما يطلق عليه علماء الأعراق (عُزلة).

وبعدما سَئمت أجواء المغتربين الرتيبة بدأ شغفي يدفعني دفعًا إلى اكتشاف سكان هذا الجرف النائي. باتجاه الجنوب الغربي من خميس مشيط، يتوقف الطريق فجأة عند هاوية، وتنفتح هوة هائلة صوب سهل تهامة أدناه، لم يكن النزول ممكنًا من هذه البقعة إلا بشق الأنفس وباستخدام الحبال. لفت نظري أخدود يمتلئ بالشجيرات الصغيرة بين الصخور يكشف عن طريق للهبوط: المخرج العمودي إلى قرية الحبلة.

كانت حُزَم من الأغصان المقطوعة ملقاة للعبور من حافة جرف إلى أخرى، وعلى بُعد ثلاث مئة متر نحو الأسفل كان بمقدوري رؤية منازل من الحجر الجاف ذات أسقف مفتوحة واسعة، إنها قرية مهجورة استولت عليها القرود، ويسيطر عليها الحزن الذي تسبب فيه الإخلاء الذي حدث مؤخرًا، لماذا وقع اختيارهم على مكان يصعب الوصول إليه لهذا الحد؟ وسرعان ما تذكرتُ الرواية الرسمية التي تفيد بأن إحدى عشائر قبيلة قحطان فرّت من الأتراك قبل سنوات واتخذت من هذه المنطقة الخطرة ملجأ لها.

في ذلك العام، ١٩٨٠م، انتقل سكان هذه القرية بعد أن أصبحوا في بؤرة فضول الغرباء إلى مكان جديد خاص بهم، وهو قرية الملك فيصل. (من أجل أن ينعموا بالمزيد من الرفاهية)، وكان زيُّهم في ذلك الحين يتكون من قطعة قماش تُربط حول الخصر، وهم بذلك يتمتعون بحرية الحركة لتسلق الصخور... وفي الوقت نفسه للوقوع في فخ حضارة متطفلة، ومن هنا بدأ ولعي بمنطقة عسير وأهلها.



في عالم اليوم حيث تستكشف الأقمار الصناعية أسرار الفضاء فإن طريقة الحياة القديمة في المناطق القبلية لا تزال تجذب الأنظار بلا شك، ويتساءل كثيرون عما إذا كان التحديث يفسد هذا الكوكب الذي نعيش عليه، ومع ذلك، ليس على أي منا الشعور بالخجل من الحنين إلى حياة يبدو إيقاعها متناغمًا مع الطبيعة والتاريخ، وقد نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك



المؤلف، تيري موجيه، (إلى اليمين) يتسلّق سفوح جبال عسير شديدة الانحدار.

في الأعلى: المرتفعات الوعرة للجرف الواقع أعلى قرية الحبلة.

فنقول: إن بقاء هذه المجتمعات ينطوي على مؤشرات لأمل في المستقبل.

من جهةٍ أخرى، يجب على علماء الأعراق البشرية* -الذين يكونون أحيانًا أسرى لقواعد علمهم- مقاومة إغراء أن يحلموا، أما أنا، فأريد أن أُقدّم صورة لمنطقة عسير مبنية على ملاحظاتي الشخصية واستجاباتي الوجدانية لما وجدته على أرض الواقع والأفكار التي أثيرت في ذهني نتيجةً لذلك، ولعل الصور الملتقطة في ظل ظروف صعبة تلقى نجاحًا أكبر من أي محاولة لإجراء دراسة على أسس (علمية) من أجل فهم عراقة نمط حياة يتلاشى في إحدى البقاع النائية في عالمنا المزدحم ■

* علم الأعراق أو الإتنولوجيا فرع من علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا، يبحث في أصول شرائح من الشعوب المختلفة وخصائصها وتوزّعها وعلاقاتها بعضها ببعض، ويدرس ثقافاتها دراسةً تحليلية مقارنة أيضًا.

الخريطة العامة لمنطقة عسير

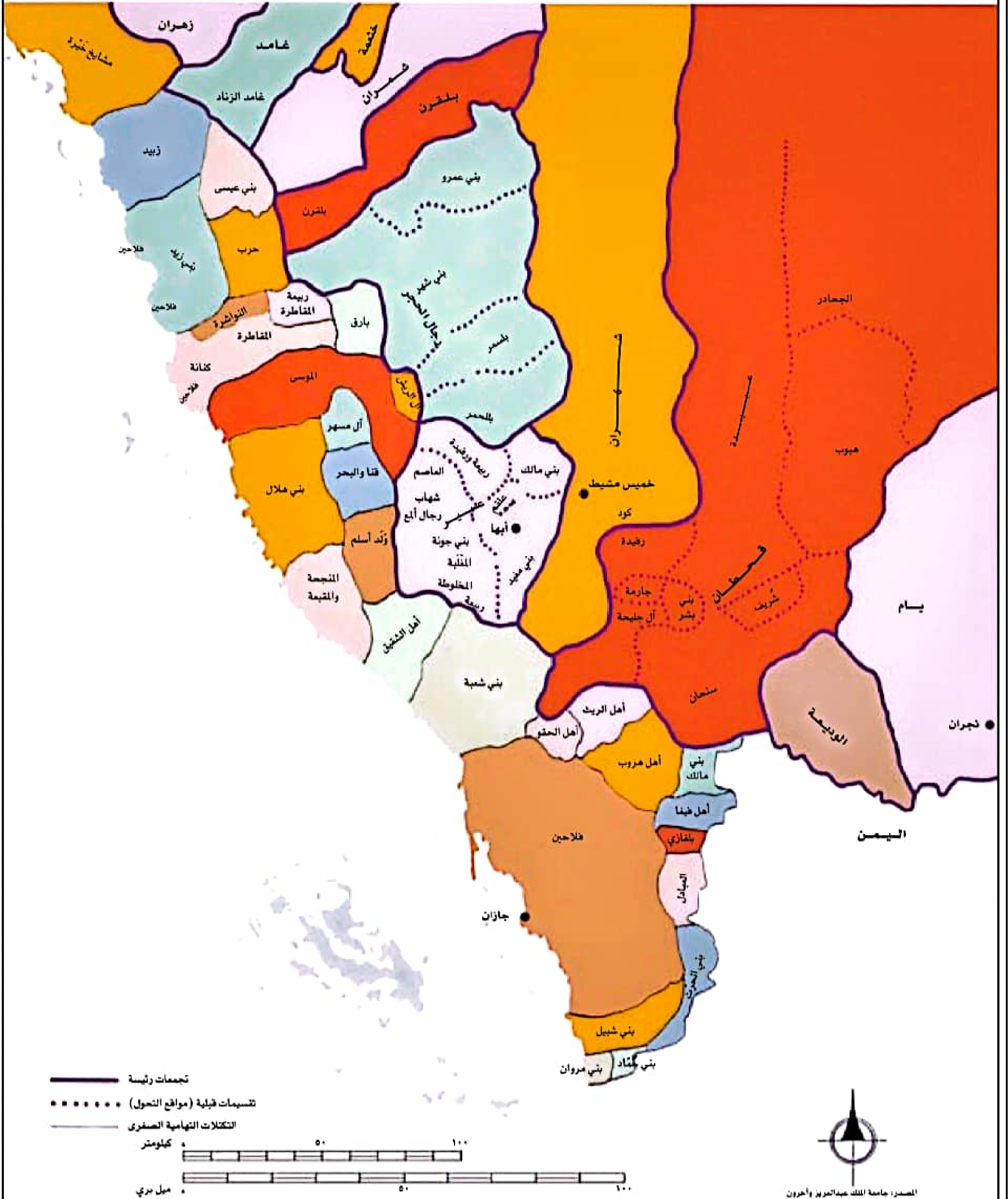
أمتار
٢٥٠٠
٢٠٠٠
١٥٠٠
١٠٠٠
٧٥٠
٥٠٠
٢٥٠
٠

مكة المكرمة
الطائف
الروضة
الليث
المندق
العقيق
غامد وزهران
الباحة
بلجرشي
المخواة
بيشة
المظيلف
خميس بارق
المجاردة
النماص
تنومة
القنفذة
البحر الأحمر
بلسمر
خميس مطير
محايل
حلي
الحرة
شيبان
رجال ألمع
البرك
خميس مشيط
جبل حمومة
جرش
أحد رفيدة
سراة عبيدة
القحمة
الشقيق
الدرب
الحرجة
ظهران الجنوب
نجران
الربث
الحقو
جازان
أثر
صبيا
فيفا
ضمد
أبوعريش
أحد المسارحة
الموسم
ميدي
فرسان
جزر فرسان
اليمن

المملكة العربية السعودية
خريطة المنطقة

كيلومترات ٠ ٥٠ ١٠٠
ميل بري ٠ ٥٠ ١٠٠

موقع أثري
طريق
منحدر
تدفقات الحمم البركانية (حرّة)
جبل
واد
أرض زراعية
حدود المحافظات
مطار
طريق سريع



توزيع القبائل الرئيسة في عسير
زهران
غامد
غامد الزناد
مشايخ خيرة
شمران
بلقرن
زبيد
بني عيسى
بني عمرو
بلقرن
حرب
فلاحين
النواشرة
ربيعة المقاطرة
بارق
بني شهر
رجال الحجر
بلسمر
بلحمر
المقاطرة
كنانة
الموسى
آل مسهر
قنا والبحر
بني هلال
ربيعة ورفيدة
العاصم
بني مالك
شهاب
رجال ألمع
أبها
خميس مشيط
كود
رفيدة
بني جونة
المثلبة
المخلوطة
ثد أسلم
المنجحة والمقبعة
أهل الشقيق
بني شعبة
قحطان
عبيدة
الجعادر
هبوب
جارمة
آل جليحة
بني بشر
سنحان
يام
الوديعة
نجران
أهل الريث
أهل الحقو
أهل هروب
بني مالك
أهل فيفا
بلغازي
العبادل
فلاحين
جازان
بني شبيل
بني مروان
اليمن
تجمعات رئيسة
تقسيمات قبلية (مواقع التحول)
التكتلات التهامية الصغرى
كيلومتر
ميل بري
٠
٥٠
١٠٠
المصدر: جامعة الملك عبدالعزيز وآخرون

مقدمة

وليام فيسي

عسير هي أكثر مناطق المملكة العربية السعودية وعورةً وعزلة وتنوعًا، ويقطنها أكثر سكان المملكة تميزًا وتنوعًا من نواحٍ كثيرة، وبالرغم من ذلك، فإنها لا تزال واحدة من المناطق الأقل شهرة في العالم نتيجة للطبيعة الوعرة لتضاريسها، وحتى يومنا هذا لا يرحب سكان عسير بالانفتاح على العالم الخارجي، كما كانت منطقة غير مألوفة للسعوديين من سكان المناطق الأخرى.

بحلول ثمانينيات القرن العشرين توغل عدد قليل من الرحالة الأجانب في المناطق الواقعة خارج الطرق الرئيسة، وقد برز مستكشفان بريطانيان في مستهل ذلك القرن، هما: (هاري سانت جون فيلبي John Philby) في الثلاثينيات، و(ويلفريد ثيسيجر Wilfred Thesiger) في أواخر الأربعينيات، كما تعاون (والتر دوستال Walter Dostal) عالم الأنثروبولوجيا النمساوي في السبعينيات مع جامعة الرياض في بلاد غامد وزهران في محافظة الباحة، في محاولة لإبراز الحدود الثقافية بين عسير وجنوب الحجاز، بينما كان (ثيودور بروكازكا Theodore Prochazka)، الأمريكي من أصل تشيكي، يدرس اللهجات الموجودة في المنطقة.

أما (تيري موجيه) الرحالة والمصور الفرنسي، فقد اختار خلال ثمانينيات القرن العشرين أن يستكشف أرجاء منطقة عسير النائية، لم تشمل رحلاته إلا جزءًا صغيرًا من هذه المنطقة غير المستكشفة، لكن اللمحات المشوّقة التي سجّلتها صوره تفتح لنا نافذة على عالم مجهول قبل أن يختفي إلى الأبد.

وربما تمكن موجيه من تخطي بعض العقبات التي اعترضت سبيل الرحالة الذين سبقوه، ولكن حتى في تلك المرحلة ظلت بعض المخاطر التقليدية المتعلقة بالاستكشاف قائمة، ويشتهر أهل عسير بكرم الضيافة، لكن الخيط الرفيع الذي يفصل بين شخص غريب يستحق الترحيب وآخر متسلل يثير الريبة ويتجنبه الناس لا يكون واضحًا للغرباء بسهولة في جميع الأحيان؛ الأمر الذي يدركه القراء المُطلعونَ على كتب (تيري موجيه) الأخرى.

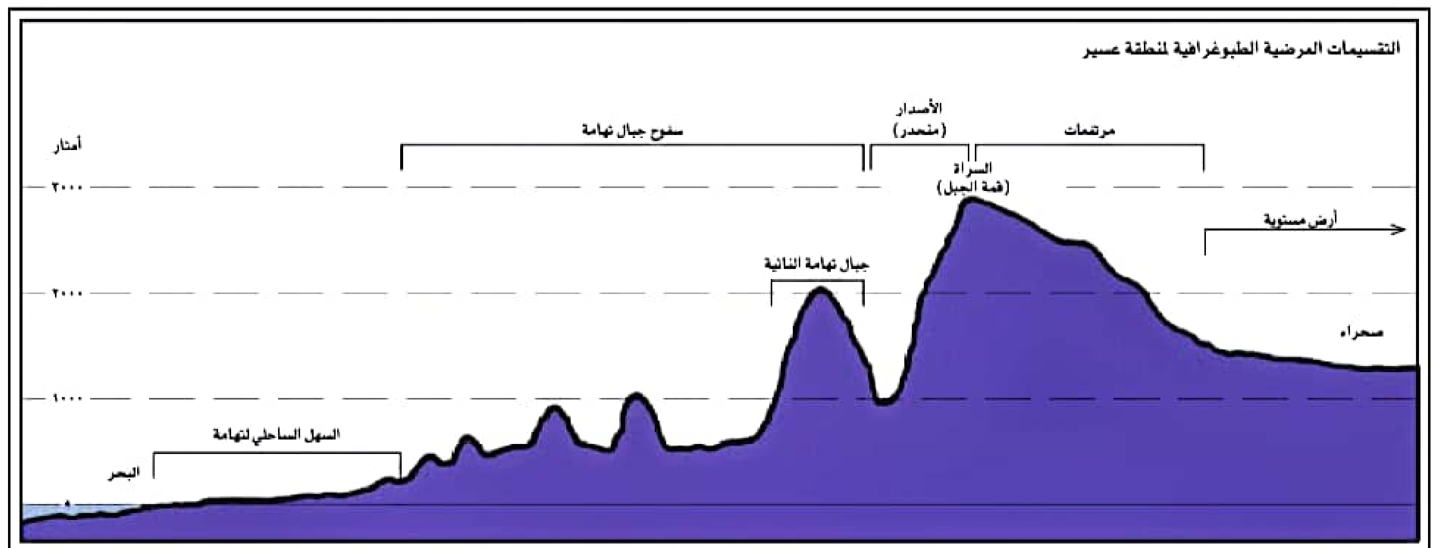
لقد أسهم عدم وجود قطاع للسياحة في السعودية حينذاك بالطبع في حجب منطقة عسير عن الأنظار الخارجية، وفي عالم يزداد فيه الإقبال على السياحة الجماعية سيشيد الكُثيرون بهذا التوجه ويتساءلون عن التأثير المحتمل لهذا الكتاب، ومع ذلك، فإن منطقة عسير على أعتاب مرحلة تحول سريع لا يُعزى إلى السياحة بل إلى التنمية، ويجتذبها الاقتصاد الوطني وبرنامج بناء الطرق بشكل متزايد نحو التوجه الغالب للمملكة، بينما يتمتع جيل الشباب الذي يترعرع في ظل نظام التعليم بتطلعات شتى، وهنا يُبرز لنا موجيه -الذي يحركه شغفه بذلك الماضي المتواري- عالمًا قديمًا وخلّابًا تفصله خطوات قليلة عن الانقراض.

يُطلق اسم (عسير) اليوم على منطقة إدارية كبرى في المملكة العربية السعودية وعاصمتها مدينة أبها، وهذه المنطقة في الأساس هي منطقة جبلية، ولكنها تتضمن مساحة كبيرة من الأراضي المسطحة الصحراوية شمالًا وشرقًا حتى محافظتي بيشة وتثليث.

ومع ذلك فالشائع أن عسير تشمل كامل المنطقة الجبلية الممتدة جنوب غربي المملكة العربية السعودية بين حدود اليمن جنوبًا ومنطقة الباحة شمالًا، حيث تندمج مع جنوب منطقة الحجاز، ويُطلَق على السهل الساحلي المنخفض الذي يمتد موازيًا لها على طول ساحل البحر الأحمر اسم (تهامة عسير)، ووفقًا لذلك تضم منطقة عسير، من الجنوب إلى الشمال، المحافظات الإدارية الحديثة المتمثلة في جازان وعسير والباحة والأطراف الجنوبية من منطقة مكة المكرمة.

كان لفظ عسير بالنسبة للسكان المحليين لفظًا قبليًا من الناحية التقليدية، ويشير إلى منطقة حول أبها يسكنها اتحاد قبائل عسير، وهكذا استعمله الهمداني -العالم الجغرافي العربي- في القرن العاشر الميلادي، أما عسير كلفظ محلّي بحت فهو لفظ مستحدث نسبيًا، يعود أصله إلى تعاظم نفوذ اتحاد عسير في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، ونتيجةً لذلك عندما آلت مقاليد الأمور في الحجاز واليمن إلى الأتراك العثمانيين في أواخر القرن التاسع عشر فإنهم أطلقوا اسم عسير على أقصى شمال السناجق الأربعة لليمن، ويمتد هذا السنجق الضخم -وعاصمته أبها في مركز منطقة عسير- من حوالي مئة كيلو متر جنوب الطائف تقريبًا في أقصى الجنوب حتى نجران وجازان، وقد شمل سهل تهامة الساحلي، ويمكن تتبع الاستخدام العامي المعاصر للفظ عسير حتى هذا الحين.

تتنوع التضاريس والحياة النباتية في المنطقة بشكل لا مثيل له، بدءًا من غابات العرعر المكتسية بالضباب في المرتفعات وحتى غابات نخيل الدوم في السهل الساحلي، وتشكل هذه البقعة وجهة مثالية لعلماء



النبات والحيوان والطيور، حيث تحدث اكتشافات جديدة كل يوم، وقد أنشئت مناطق محمية وكذلك منتزه عسير الوطني بالقرب من أبها، وتشهد سلسلة الجبال المرتفعة التي تمتد من الطائف جنوبًا إلى حدود اليمن أعلى معدلات هطول الأمطار في المملكة، تكفي في بعض الأماكن لاستدامة الزراعة الجافة على الهضبة العليا والتلال المدرَّجة، ويصل معدل هطول الأمطار إلى ذروته تحديدًا في جبل السودة بالقرب من أبها، حيث يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف متر.

يُطلق على الحافة الغربية للهضبة العليا اسم (السراة) والتي تنحدر تدريجيًا نحو الشرق مندمجة مع الأراضي المسطحة لغرب نجد، وفي المقابل فإن حافتها الغربية محددة بوضوح بسبب الجرف الحاد الذي يعرف باسم (الأصدار)*، والذي يمتد بالتوازي مع ساحل البحر الأحمر، ويمضي هذا الجرف الحاد حتى التلال والوديان الوعرة، ومن ثم إلى سفوح تهامة الجبلية، وهناك أيضًا جبال تهامة الشاهقة المعزولة التي تشهد هطول أمطار غزيرة شأنها شأن الجرف، وباتجاه الغرب تقع الأراضي المنخفضة الساحلية، وتتشكل هذه الأراضي -خاصةً حول جازان- من مناطق زراعية غنية تغذيها الأودية من الجبال، والتي تتحول إلى رواسب طينية مروحية الشكل قبل وصولها إلى الساحل، وفي أقصى الشمال بين الشقيق والقنفذة يتشكل شاطئ البحر من تدفقات الحمم البركانية الواسعة ومستنقعات نبات المانجروف الذي يعيش على الماء المالح.

وعلى عكس باقي مناطق المملكة تشهد عسير هطول أمطار غزيرة، وخاصة في الجبال، ويُلاحَظ وجود تباين في درجات الحرارة بين تهامة والجبال.

تهطل الأمطار التي يمكن الاعتماد عليها مرتين في العام: أمطار الشتاء التي تسببها الرياح الشمالية الغربية وتصب في حوض البحر الأحمر، وأمطار الصيف الموسمية، وتستفيد عسير بأكملها من كلا النوعين، لكن يقلّ هطول الأمطار بسبب الرياح الشمالية الغربية تدريجيًا نحو الجنوب، بينما تزيد الأمطار في الصيف، لذا تشهد المناطق الشمالية هطول ما يصل إلى نصف حصتها من الأمطار في الشتاء، في حين تشهد الأجزاء الجنوبية معدلًا أقل من ١٢٪، وفي فصل الصيف يحدث العكس، حيث تستقبل المناطق الجنوبية حوالي ٨٠٪ من حصة أمطارها في الصيف، وتقل مع الاتجاه شمالًا.

ونظرًا لأن هطول الأمطار تحدده التضاريس الجبلية؛ فكلما زادت التضاريس اشتدت الأمطار، ويبلغ الحد الأقصى حوالي ٥٧ سم سنويًا، وتشهده منطقة جبل السودة، في حين يشهد السهل الساحلي الحد الأدنى لمتوسط هطول الأمطار السنوي الذي يبلغ حوالي ١٥ سم سنويًا.

يتراوح متوسط درجات الحرارة السنوي بين ٣٠ درجة مئوية في جازان، وهي واحدة من أشد مناطق العالم حرارة، مع ارتفاع الرطوبة، ونطاق تباين سنوي محدود يتراوح بين ٧ و ١٤-١٦ درجة مئوية في بللسمر والنماص وأبها، بينما تقل درجات الحرارة في المرتفعات كلما اتجهنا إلى الشمال، ويبلغ النطاق السنوي لمتوسط التباين في درجات الحرارة حوالي ١٠ درجات مئوية.

* الأصدار: كلمة محلية يقصد بها الجبال الهاوية، وفيها ممرات قديمة ضيقة لا يمكن استخدامها إلا سيراً على الأقدام، وكان سكان المنطقة يستخدمونها للنزول المباشر من أعالي الجبال إلى سهول تهامة.

الجبال الواقعة أسفل السراة
أو قمة الجرف




طريق متعرج يربط تهامة بالأسفل بجبل السودة، أعلى نقطة في جبال السروات.

سكان منطقة عسير

تعيش في جبال عسير مجتمعات هي الأبعد والأكثر احتفاظًا بطبيعتها في المملكة، وقد أدت التضاريس الوعرة إلى عزلها عن التأثيرات الخارجية.

وتختلف تقاليد هذه المنطقة في بعض النواحي عن تقاليد المناطق الأخرى في المملكة، وهذه المرتفعات هي الجزء الوحيد من المملكة الذي تتوافر فيه الزراعة دون ري من الآبار؛ لذلك على مدار آلاف السنين عمل سكان هذه البقاع -مثل سكان المرتفعات اليمنية- على تقسيم سفوح الجبال الخضراء إلى مدرجات، وشيَّدوا قراهم وأقاموا أسواقهم الأسبوعية، وبالرغم من الانحدار الشديد للجرف وصعوبة الوصول إليه فإنه لا يُشكِّل عائقًا ثقافيًا، إذ تتوزع المناطق القبلية على قمة الجرف، ويمضي الاتصال المستمر عبر الوديان شديدة الانحدار أو العقبات التي تقطعها.

تنقسم المنطقة إلى مزيج من القبائل المنضوية في تجمعات، وتقع أراضيها بزاوية قائمة عبر الجرف لتشمل جزءًا من المرتفعات وجبال تهامة، ومن الناحية التاريخية فقد عاشت هذه القبائل في صراع مستمر، وكما نعرف لا تندثر العادات القديمة بسهولة، فحتى وقت قريب كان الرجال يخرجون مسلحين بشكل مثير للإعجاب ويتباهون بما يمتلكونه من أسلحة.

في معظم الأحيان تستقر القبائل وترتبط بأراضيها، بينما تُشكِّل المجموعات البدوية لرعي الأغنام أقلية، وفي حالات مثل قبيلة قحطان في عسير- التي يعمل معظم أبنائها من البدو التقليديين في رعاية الإبل في جنوب نجد - فإن من يسكن الجبال منهم يتبع نمط حياة مستقر مثل بعض جيرانه، ومن يعيشون على سفوح التلال هم من البدو الرُّحل، وتوجد بالمناطق السفلية على السهل الساحلي حول جازان قرى لا تنتمي إلى قبائل يسكنها فلاحون مستقرون في أكواخ مصنوعة من الأغصان المقطوعة الدائرية.

ولا يزال تاريخ الاستقرار في جبال جنوب غربي المملكة وسواحلها غامضًا، ولكن لدينا أدلة عليه من العصر الحجري الحديث تعود لحوالي ٤ آلاف عام وأكثر، وفي بقاع أخرى من البلاد شهد النمط المألوف لواحات النخيل المروية ورعاة الإبل الصحراوية تطورًا منذ ٣ آلاف إلى ٥ آلاف سنة، وتحتاج عسير إلى أساليب مختلفة للزراعة، وربما استجاب تطور الزراعة هناك إلى تأثيرات مختلفة، واتبع جدولًا زمنيًا مغايرًا، ومع ذلك فإنه ينبغي البحث عن أصول ثقافة عسير خلال الحقبة التي تطورت فيها الزراعة في الواحات، وحيث رُوِّضت الإبل في أماكن أخرى في شبه الجزيرة العربية.

ومن المرجح -في المقام الأول- أن ثقافة عسير تشترك في أصل عام مع بلاد اليمن المجاورة، وقد أظهرت البحوث الأثرية في العصر البرونزي في اليمن -والتي كانت حتى وقت قريب من الموضوعات البحثية المهملة- أن المستوطنات الزراعية كانت موجودة هناك من عام ٢٢٠٠-١٧٠٠ قبل الميلاد، وتعكس الأواني الفخارية لهذه المستوطنات وجود روابط واضحة بأدوات من سوريا وفلسطين تعود إلى العصر البرونزي.

ويتعزز هذا الافتراض المعني بالأصول الثقافية المنتمية للشمال -عبر غرب شبه الجزيرة العربية- من خلال خط (كتابة) يعود إلى اليمن قبل الإسلام، ويُعرف أيضًا باسم كتابة جنوب شبه الجزيرة العربية أو الخط السبئي أو الحميري، كما يعرفه العرب بخط المسند، وثمة عاملان يجب وضعهما في الاعتبار، وهما الترتيب الأبجدي والحروف الساكنة الباقية في نصوص ولغات اليمن القديم، والتي خرجت في وقت لاحق من السامية الغربية الشمالية ذات الصلة في فلسطين وسوريا، ويشير هذان العاملان بقوة إلى أصل النصوص واللغة السبئية قبل منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، ويمكن قول الشيء ذاته على معظم كتابات شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ولهجاتها.

وأخيرًا، فإن الاسم القبلي (قحطان) ذاته يدل على العصور القديمة العظيمة، حيث يشير العرب إلى قحطان باعتبارها أصلًا لجميع القبائل العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية (العرب الأقحاح) على نحو مختلف عن العرب (المستعربة) في الشمال الذين ترجع أصولهم إلى عدنان، وربما يعكس هذا التقسيم للعرب الانقسام بين المزارعين المستقرين في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية والرعاة البدو في وسطها وشمالها، كما قد يحفظ ذكرى التمييز اللغوي بين متحدثي السامية الجنوبية القدماء في الجنوب الغربي واللهجات المتأثرة بالآرامية لعرب الشمال.



تدين المباني الحديثة بالفضل إلى عمارة عسير التقليدية الموجودة في قرية المفتاحة، مركز الملك فهد الثقافي في أبها.

يكتنف الغموض التاريخ اللاحق لعسير، ومع ذلك، ففي القرون اللاحقة قبل الميلاد وبالتزامن مع صعود نجم الحضارة اليونانية والرومانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، أنشأ مزارعو الوديان الذين تدفّقوا إلى الصحراء الداخلية في رملة السبعتين في اليمن حضارة تعتمد على نظام المدينة/الدولة، وأخذ زعماؤها على عاتقهم مسؤولية تشييد أعمال ري كبرى، وقد تم التحكم في أهم هذه الأعمال من خلال السد العظيم في مأرب عاصمة سبأ، وعم الثراء بفضل التجارة في المواد العطرية والسلع الفاخرة الواردة من المحيط الهندي، والتي كان عليها طلب متزايد في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وقد أدى هذا الازدهار إلى تسمية الرومان لهذه المنطقة باسم (بلاد العرب السعيدة).

وقد تسنى لهم -بفضل هذه التجارة- توفير منتجاتهم المحلية والبخور الشهير ونبات المر في جنوب شبه الجزيرة العربية، ونمت شبكة من مستوطنات الواحات التجارية في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية لتولي شؤون هذه التجارة في الخليج العربي والعراق وشرق البحر الأبيض المتوسط.

وقد شكلت نجران -التي تفرع منها الطريق الرئيس- نقطة محورية، ومن هناك اتجه أحد الفروع إلى الشمال والشرق صوب قرية الفاو، وتجاوز شمال الربع الخالي إلى واحة الأحساء في المنطقة الشرقية، واتجه الفرع الآخر شمالًا ربما عبر تثليث فوق تضاريس أقل وعورة وأقل كثافة سكانية نحو شرق هضبة عسير الجبلية.

وعلى عكس اليمن، لا تتباهى عسير بأطلال المراكز الحضرية الكبرى التي كانت قائمة قبل الإسلام، وحتى اليوم هي بلد المستوطنات الصغيرة والأسواق المحلية، وتوجد أكبر مواقعها على أطراف اليمن القديم، فتقع جرش جنوب مدينة خميس مشيط، حيث يعتقد السكان المحليون أن جبل حمومة القريب كان المكان الذي عسكرت فيه (بلقيس) ملكة سبأ وهي في طريقها لمقابلة الملك سليمان، وباتجاه الجنوب تقع مدينة نجران القديمة في واديها الواسع الممتد من الجبال إلى رمال الربع الخالي في الشرق بالقرب من الحدود الحديثة مع اليمن، وعلى ساحل تهامة بالقرب من جازان يقع ميناء عثر القديم، ومع ذلك فإن النقوش والرسومات الموجودة في جميع أنحاء عسير ككل وفي تهامة تُظهر أن السكان ينتمون إلى التركيبة الثقافية ذاتها التي ينتمي إليها سكان اليمن قبل الإسلام.

ازدهرت (بلاد العرب السعيدة) لقرون عدة حتى تسبب الركود الاقتصادي في العالم الروماني خلال القرن الثالث الميلادي في انخفاض الطلب على منتجاتها، وفي تلك الحقبة تقريبًا انضمت الممالك القديمة المتمثلة في سبأ ومعين وقتبان وأوسان وحضرموت تحت لواء محلي واحد في مرتفعات اليمن، وهو أهل حمير في ظفار، كما شهدت القرون الميلادية الأولى حركة واسعة للقبائل خارج جنوب غربي شبه الجزيرة العربية صوب الشمال والشرق، وربما كان لفشل أنظمة الري وتطوير البحارة

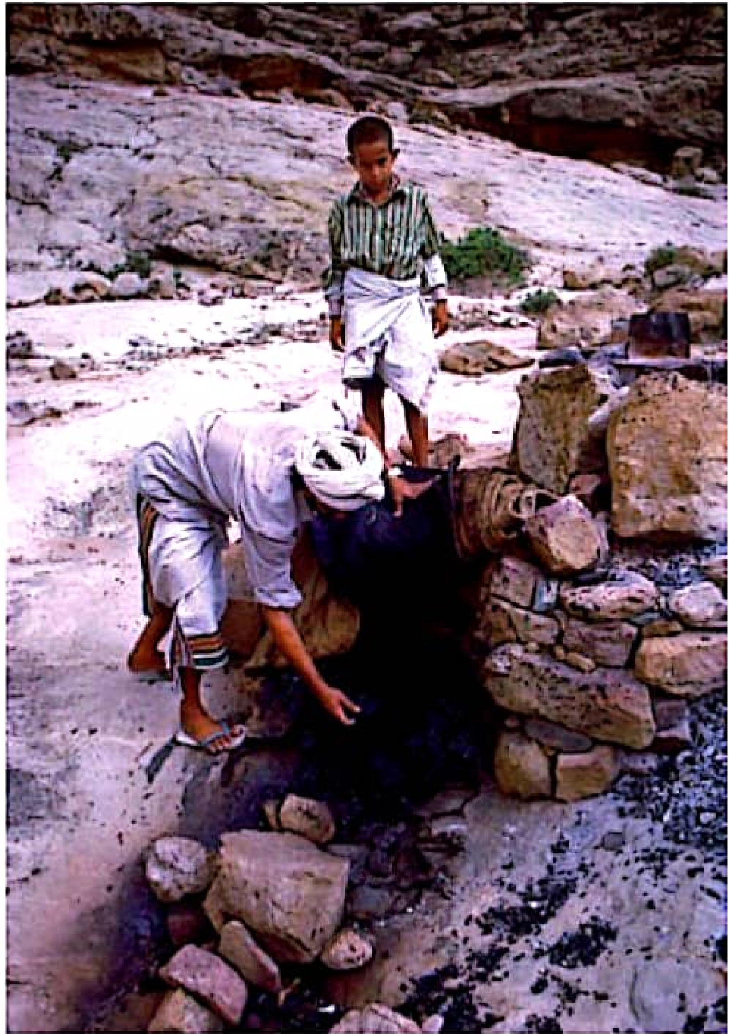
بدو قحطان من تهامة الجبلية يرعون الأغنام والماعز، مثل جيرانهم من القبائل الأخرى.



المصريين واليونانيين للملاحة البحرية لمسافات طويلة، وانخفاض الطلب، والقوة المتزايدة للقبائل البدوية في وسط شبه الجزيرة العربية دور في تراجع الحضارة اليمنية، وخلال القرون الثلاثة التي سبقت الإسلام أو نحو ذلك تنافست الإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس مع الإمبراطورية البيزنطية والإثيوبية لبسط نفوذها في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية، وقد تسبب ذلك في وجود التزام قصير المدى نسبيًا تجاه الديانات التوحيدية المتعددة في المنطقة: المسيحية واليهودية و(الرحمانية)*، ولم تندثر الثقافة السابقة تمامًا حتى مع ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي، وكان اليمنيون

* تشير النقوش من القرن الرابع بعد الميلاد التي عثر عليها المنقبون في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى (الإله رحمن) الذي يتصف بالوحدانية مثل خالق السماوات والأرض، ولا يجزم الباحثون إن كان هذا الإله امتداد لعقيدة الشرك أم نتيجة لتأثير المسيحية واليهودية، لكن هناك من يقول إن الرحمانية الحميرية التوحيدية جاءت لتصحيح مسار الديانتين اليهودية والمسيحية.


النباتات العالقة تعلو شجر العرعر في مرتفعات السراة.


رجل وصبي من قبيلة الريث بجانب أحد الأفران لاستخراج الراتنج من الخشب.

المتعلمون مثل الهمداني حتى أواخر القرن العاشر لا يزال بوسعهم فهم نقوش المسند القديمة.

كتب الهمداني بشكل مكثف عن اليمن وعسير، ويشبه نمط المستوطنات والقبائل الذي سجَّله في عسير بدرجة كبيرة النمط الذي لا يزال قائمًا، وبالتالي فإن ما نراه الآن من مناظر طبيعية ونمط استيطان يُعَبِّر بالتأكيد عن نمط قديم لم يتأثر بغزو أو اضطرابات أخرى، أما الفارق الرئيس فيتمثل في فرض بعض قبائل المرتفعات سيطرتها على الجرف وجبال تهامة غربًا نحو الساحل منذ ذلك الحين.

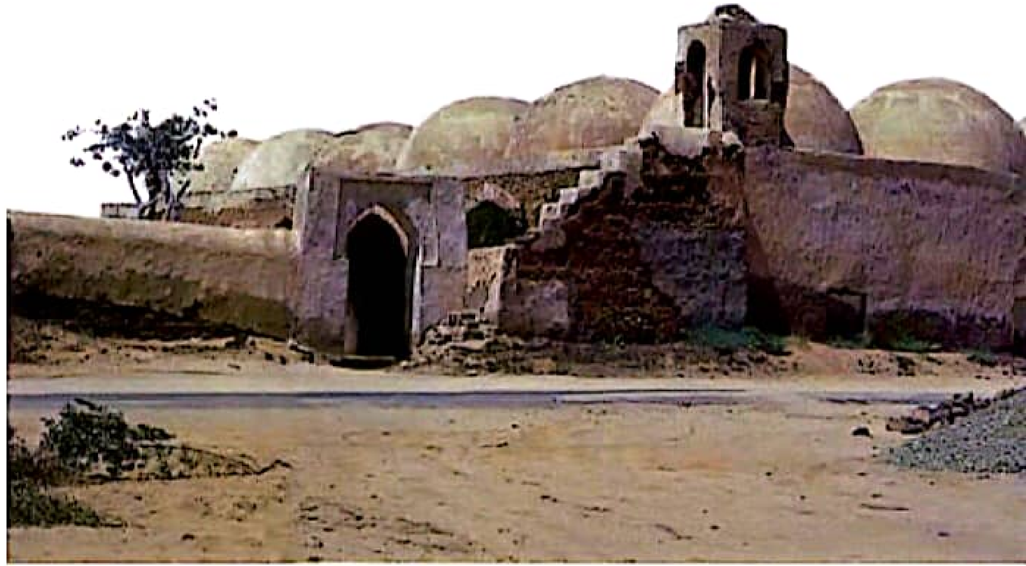
وبالاتجاه إلى المناطق السفلى من تهامة نلاحظ أن التجمعات القبلية أقل من التجمعات الموجودة في تهامة الجبلية والهضبة العليا، ويمكن رؤية أن الحدود بين النوعين المختلفين من القبائل والأراضي المنخفضة والمرتفعات تتبع الخط الكنتوري الذي يبلغ طوله ٧٠٠ متر تقريبًا، وتُصنّف قبائل تهامة بشكل مشابه إلى قبائل مستقرة وقبائل بدو، كما تستوطن تهامة بعض القبائل البدوية العريقة، لكن الاختلاف المهم في هذه الأراضي المنخفضة يتمثل في وجود الكثير من الفلاحين غير المنتمين لقبائل، ونصفهم من أصول إفريقية، ونظرًا لعدم وجود ما يميز لغتهم أو عاداتهم عن الفلاحين المحليين فإن السكان ذوي الأصول الإفريقية قد استقروا في تهامة مدة طويلة للغاية، ويرتبط هؤلاء الفلاحين بقراهم، وهي مستوطنات مميزة تتألف من أبنية من الأخشاب وبيوت من الأغصان الدائرية المقطوعة في السهول التي ترويها الفيضانات، وخاصة أكبرها وأكثرها كثافة سكانية حيث تقع جازان وصبيا وأبوعريش.

وأدّت المعالم الجغرافية غير المستوية والوعرة في تهامة إلى تكوُّن بعض المجتمعات شديدة العزلة، وأبرزها تلك المجتمعات التي عُرفت بأسماء الجبال الشاهقة النائية في جنوب تهامة: أهل الريث، وأهل هَروب، وأهل الحقو، وأشهرها على الإطلاق أهل فيفاء.

تزخر عسير بألوان شتى من الطرز المعمارية المتنوعة على نحو ساحر ومدهش، وتختلف من منطقة إلى أخرى بطريقة تشير إلى أن السكان قد استثمروا هويتهم القبلية في نمط بنائهم وبالقدر نفسه في أزيائهم. وتتنوع المباني المحلية بين المنازل البرجية المبنية من الحجر والطين في المرتفعات، البسيط منها والمزخرف، وأكواخ الباحة المكونة من طابق واحد، وأكواخ الأغصان المقطوعة في سهل تهامة ذات التصميمات الداخلية الغنية، وهناك أبراج مراقبة حجرية مستديرة وأبراج محصنة محلية لتجفيف المحاصيل، كما توجد خارج المستوطنات مبانٍ متواضعة للأسواق تظل خالية باستثناء يوم واحد في الأسبوع، وقد كانت منازل التجار في جازان وجزر


يعود تاريخ مسجد القبب المهيب في أبوعريش (أعلاه) إلى الأوقات التي كانت فيها هذه البلدة المهمة الواقعة بالقرب من جازان مركزًا إداريًا للعثمانيين.

تتميز سفوح جبال تهامة بانتشار نخيل الدوم في البحيرات الموسمية.



فرسان وقصر الإدريسي في صبيا عبارة عن مبانٍ مستطيلة مزينة بأعمال جبسية منحوتة، بينما غلبت القباب الصغيرة على تصاميم المساجد والحمامات، وفي جميع أنحاء عسير كانت أعمال البناء المحلية ذات جاذبية معمارية رائعة.

ويشتغل أهل عسير بالزراعة، وحتى وقت قريب كان أهل عسير ينتجون جميع احتياجاتهم تقريبًا، وكان اقتصاد المنطقة موجهًا لتوفير سبل العيش والاكتفاء الذاتي، ولم تكن هناك مدن يمكن الحديث عنها بين نجران والطائف؛ لذلك كان التوزيع في المرتفعات ضمن مناطق محدودة من خلال دائرة الأسواق التي تتوزع إقامتها على مدار الأسبوع، وقد اشتهرت العديد من المراكز بيوم إقامة السوق بها؛ ومن هنا جاءت تسمية (خميس مشيط) و(أحد رفيدة).

أما عن غلال المحاصيل الرئيسة فقد كانت كالآتي: القمح والشعير في المناطق المرتفعة، والذرة الرفيعة (الدرة) في جميع المناطق، والدخن على السهل الساحلي، وكان السمسم من المحاصيل المهمة الأخرى التي انتشرت في تهامة، كما سادت زراعة العدس والبرسيم في المرتفعات.

وكما هو الحال في أي مكان آخر في شبه الجزيرة العربية زُرِعَت الفواكه والخضراوات للاستخدام المنزلي فقط، ومن الخضراوات الشائعة البصل والثوم والفاصوليا البيضاء والفجل والسبانخ والبطيخ والخيار. وقد أدخل العثمانيون معهم الطماطم والباذنجان والبامية قبل الحرب العالمية الأولى، وتكاد تخلو المنطقة بأكملها من نخيل التمر الذي تصادف وجوده لأول مرة على الوديان المجاورة لعسير، على سبيل المثال في بيشة ونجران، ويُزرع الموز والبابايا والليمون في الأراضي المنخفضة، في حين تضم المرتفعات تشكيلة هائلة من الفواكه المعتدلة: العنب والبرقوق والمشمش واللوز والكمثرى والتين والرمان والفستق، وتنمو أشجار الزيتون بكثافة على امتداد الجرف، وقد زُرِعَت حبوب البن على الجرف والجبال العالية النائية مثل فيفاء. أما اليوم فقد أدى الانتقال إلى الأسواق وتشجيع الحكومة إلى زيادة حجم إنتاج الفاكهة والخضراوات وتنوعها.

وتتنوع طرق الزراعة في عسير تنوعًا كبيرًا مقارنة بباقي مناطق المملكة؛ فمن ناحية يتساقط على المناطق الممتدة على طول قمة الجرف ما يكفي من مياه الأمطار لتمكين المزارعين من الاستغناء عن الري والتحكم في الفيضانات أيضًا، أما المناطق التي

تهطل عليها كمية أقل من الأمطار فتعوّض ما ينقصها من خلال التحكم في الفيضانات بطرق مختلفة، مثل سدود التحويل على نطاق الأودية المنخفضة، واحتجاز المياه في مدرجات المرتفعات، وتوجيه المياه الجارية عبر القنوات الكنتورية إلى الحقول حيث تكون هناك حاجة إليها (الانسياب الجانبي)، وفي الوديان التي تُصرّف مياه المرتفعات إلى الشرق تُستخدم الآبار لتكون مكملة لمياه الري.

عسير في الماضي القريب

طوال العصر الإسلامي تَمَكَّنَ أهل عسير من التمسك بنمط حياتهم بلا انقطاع من دون عرقلة من العالم الخارجي، وتعكس المناظر الطبيعية في عسير هذه المرحلة الطويلة من الاستقرار الثقافي، ومع ذلك فإن القرن التاسع عشر الميلادي قد جلب إلى عسير تدخلًا فجًا، حيث تعرّضت للغزو في عام ١٨٣٤م بعد حملة عسكرية من مصر بقيادة محمد علي باشا تحت لواء الإمبراطورية العثمانية شكليًا، واستمرت نحو سبع سنوات (١٢٢٦هـ-١٢٣٣هـ/١٨١١م-١٨١٨م)، وقد شارك الفرنسي تاميسير في الحملة، وقدّم لنا أول تقرير لشاهد عيان أوروبي عن البلد، وفي وقت لاحق من القرن التاسع عشر سيطر العثمانيون بشكل دائم على الحجاز وعسير واليمن، واستمر الحكم العثماني لعسير حتى تفكك الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وفي ذلك الوقت تحالف محمد بن علي الإدريسي -الذي حكم عسير صوريًا من عاصمته في صبيا بالقرب من جازان- مع بريطانيا ضد الأتراك، تمامًا مثلما فعل الشريف حسين في الحجاز، وعندما غادر الأتراك شبه الجزيرة العربية ظلت عسير تحت حكم الإدريسي، وفي عام ١٩٢٠م، تولى ابن سعود إمارة أبها تاركًا للأدريسي الإشراف على عسير وتهامة وحتى الحديدة تحت مظلة الدولة السعودية، وقد مات محمد الإدريسي في عام ١٩٢٢م، واندلعت حرب أهلية بين الفصائل بقيادة ابنه وشقيقه، ودخلت اليمن والدولة السعودية الناشئة حديثًا في صراع بينهما، وفي نهاية المطاف سُوِّيت الخلافات لصالح الرياض من خلال ضم عسير وتهامة للمملكة، وفي عام ١٩٣٤م أنهت إحدى المعاهدات النزاع الحدودي في عسير وتهامة بين اليمن والمملكة.

وبدخولها تحت حكم السعودية اكتشف أفراد قبائل عسير مزايا حياة الأمن والتخلص من النهب والصراعات الدموية التي سادت في الماضي، لكن الصراعات الكامنة حول حقوق الرعي أو إعادة إشعال أزمة الحدود بين القبائل تظهر عند التقاء عشيرتين بينهما نزاع في الأسواق الأسبوعية، ومع ذلك فإن مزايا الانتقال من فرد في قبيلة إلى فرد في أمة أصبحت جلية،





في الأعلى: البيوت ذات الطبقات الطينية الأنيقة تصطف معًا لدواعي السلامة (والظلال الباردة) لتُشكّل القرى في منطقة سراة عبيدة، جنوب شرق أبها.

إلى اليمين: ينمو القمح والشعير والذرة الرفيعة في المزارع والمدرجات الزراعية في منطقة رجال ألمع بمنطقة تهامة الجبلية (إلى اليمين).

حتى في التفاصيل البسيطة مثل اعتماد بعض الرجال غطاء الرأس المرقط الذي تشتهر به نجد، وفي عام ١٩٦٥م -عندما سأل الجنرال ديغول السفير الفرنسي في الرياض بيير ريفول عما إذا كانت المملكة العربية السعودية عشيرة واحدة أم مجموعة من القبائل- رد بذكاء قائلًا: «هي مجموعة من القبائل بصدد التحول لعشيرة واحدة»، وقد كان هذا التصريح مناسبًا لعسير مثلما هو الحال بالنسبة لسائر البلاد.

مثلت الخمسون عامًا الماضية أو نحو ذلك بالنسبة للسعوديين مرحلة تحول جذري في نمط الاستيطان والمعيشة، ويكتسب الجيل الجديد -المتعلم والمتحضر- ثقافة مادية رفيعة لم يحلم بها أحد من قبل، حيث يتوافر معظمها داخل المنزل من خلال أحدث السلع والتقنيات الاستهلاكية، إذ تتيح لهم محلات الأسواق التجارية الحصول على كل أنواع الأطعمة المستوردة في جميع أوقات العام، كما تنتشر ملكية السيارات على نطاق واسع، مما كان له عظيم الأثر في التخطيط الموسع للمدن والضواحي الجديدة.

ولا تزال المدن والواحات والموانئ التاريخية في المملكة تحظى بأهمية كبرى، إلا أن المراكز الجديدة قد طغت عليها في بعض المناطق، وفي عسير لا تزال المراكز القديمة اليوم مدنًا رئيسة شهدت تطويرًا واسع النطاق، وتُعدُّ أبها -عاصمة إقليمية صاخبة-، كما تمثل خميس مشيط قاعدة عسكرية تزخر بالعديد من المغتربين، أما جازان فتحتل المركز الثالث كميناء مطل على البحر الأحمر بعد جدة وينبع، والمراكز الأصغر حجمًا -التي تشهد عمليات التطوير حاليًا- من بينها محايل وخميس بارق والشُّعبين والنماص ورجال ألمع وصبيا، كانت جميعها في الماضي ضمن الأسواق المحلية المهمة التي اختارتها السلطات العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كمراكز إدارية للمنطقة، وفي حالات أخرى تم تطوير مراكز الأسواق القديمة مثل سراة عبيدة وبلجرشي؛ إذ تمر الطرق الرئيسة بالقرب منها.

وكما هو الحال في المناطق الأخرى من المملكة، ويتعزز استمرار وجود أهل عسير على أرضهم من خلال الإعانات الزراعية السخية التي يتلقونها، وشبكة الطرق المنتشرة التي تتيح وصول منتجاتهم إلى الأسواق، وتلقى الزراعة ازدهارًا كبيرًا بفضل تشييد السدود، وخاصة بالقرب من جازان وأبها، ولم تعد القرى الريفية معروفة بمعالمها المعهودة، بل اكتسبت طابع الحداثة من خلال التقنيات المعاصرة ومواد البناء الحديثة والطرق البرية، ولكي يُدخل العالم الحديث أهل عسير في دائرته سوف يفرض إيقاع حياته عليهم، وسوف يؤثر التعليم والسفر والتلفاز والتواصل مع الأجانب في الطريقة التي يرون بها أنفسهم ومكانتهم بين شعوب العالم، وبالرغم من ذلك سيظلون محتفظين بروابط وثيقة الصلة بالماضي، وتتمثل في ولائهم الراسخ والدائم للعائلة وللمجتمع، فقد شهد الأفراد الأكبر سنًا جميع التحولات التي جرت خلال نصف القرن الماضي، وكما يوضّح لنا تيري موجيه فإنه ما يزال من الممكن استشعار أجواء ثقافة المنطقة الموغلة في القدم بعيدًا عن المجالات الرئيسة للتنمية ■



الفصل الأول:

الهضبة العليا

عالمٌ من البنّائين

تزدان المنطقة المحيطة بأبها بمنازلها الطينية الراسخة، وترتفع جدرانها في شرائط متراكبة من الطين المتلبد، وتكتسب هذه المنازل شكلًا هرميًا مبتورًا من خلال التدرج الطفيف من طبقة إلى أخرى، وكثيرًا ما تتشابه الكتل المتعاقبة من الصخر الزيتي -والموضوعة على فواصل منتظمة ومتداخلة قليلًا- مع الطبقات البديعة للدروع العظمية للحيوانات البدائية، وتتميز بمقاومتها الفاعلة للتآكل جراء هطول الأمطار إلى جانب حجبها لأشعة الشمس، وعادةً ما تكون الأساسات صخرية للتصدي لارتفاع الرطوبة أو الفيضانات.

في القرى الصغيرة أو مجموعات القرى التي تنتمي جميعها بشكل حصري لقبيلة أو أخرى، تصطف المنازل معًا بشكل متقارب للغاية في أغلب الأحيان، بحيث تُشكّل سورًا متسلسلًا كوسيلة للدفاع الجماعي والتصدي لأي أخطار، كما تكثر المآذن. وتندمج بعض هذه المستوطنات ببراعة في المناطق الريفية، لكن في بعض الأحيان يود كل منزل أن يجذب الاهتمام ويتميز عن المنازل الأخرى، فيُطلى بألوان زاهية تُبرز الفضاء المحيط به، وقد جرى تعبيد الطرق المؤدية إلى أهم القرى في الوقت الراهن.

إن كره هذا التطور سيبدو نوعًا من النفاق بدعوى المحافظة، ومع ذلك كثيرًا ما تفسد المشهد مكبّات القمامة (الغربية) غير المصرح بها -فالقرويون الذين عاشوا لمدة طويلة في عالم حيث يمكن للتربة أن تمتص

الألواح المزودة بفتحات للتهوية المنتشرة في مرتفعات قحطان بالقرب من أبها تحمي الجدران الطينية من التآكل بفعل الأمطار.



كل شيء يلقى عليها- غالبًا ما يكونون غير مبالين تجاه القمامة، فعلى الطرق تُترك السيارات المقلوبةعلى ظهورها ليأكلها الصدأ من دون أن يلتفت إليها أحد.

إلى جانب الإنشاءات المبنية من الطين في هذه البقعة تبرز منازل عالية من الحجر الجاف، وتتصدع أحيانًا كما لو كانت ستنفجر مثل حَبات من الرمان الناضج، ويعزو بعضهم وجود هذه الإنشاءات إلى أيام الحكم العثماني، حيث تبرز الأجزاء المشرقة من حجر المرو فوق النوافذ والأبواب في أنماط هندسية بديعة. ومن الحجاز مرورًا بمنطقة عسير وحتى الحدود اليمنية يعد الكوارتز





سوق أبها (إلى اليمين وبالأسفل). الرجال الأكبر سنًا يحملون خناجر في غمد مصنوعة محليًا كما جرت العادة.

بيت عائلي متواضع بالقرب من أبها (في أسفل اليسار) يعرض ألواحًا متدرجة نموذجية تحمي الجدران الطينية من التآكل بسبب الأمطار.

عنصرًا أصيلًا في زخرفة الجدران، حتى إن بعض الفنانين تمكنوا من تطوير زخارف نباتية مطرزة منه، وتنتشر أبراج المراقبة المستديرة الشاهقة في الأرجاء.

تصطف في عدوان الواقعة على مقربة من أبها ثلاثة أجيال من المنازل المتراصة جنبًا إلى جنب معبرةً عن التطور المعماري الذي شهدته المنطقة، وإذا ما نظرنا من منزل إلى آخر فسنجد المنزل الشاهق المبني من الصخر الجاف نوافذه عبارة عن شقوق عمودية، وجدرانه مزينة بالكوارتز، ويعود بناؤه إلى ١٥٠ عامًا مضت، ويُتوَّج هذا الصرح بطابق إضافي يعكس الاستعانة بمواد البناء الحديثة المستخدمة في عالمنا اليوم. وثمة منزل آخر بالجوار مُطوَّق بجدار طيني مخطط فيه صفوف من فتحات التهوية المضادة للتآكل، ويبلغ عمره ثلاثين عامًا، وعلى التل المقابل يعكس البيت الخالي من أي زخرفة والمُشيَّد من الطوب المفرغ الخفيف التخلي عن ذلك التقليد العريق الذي كانوا يتبعونه في البناء، وفي الوقت الذي تحافظ فيه النساء على وجود مسافة معقولة بينهن وبين الرجال، يُرحب بي أحد الرجال بابتسامة عريضة، وقد أخبرني أن والده عاش في المنزل الأول، وأنه هو نفسه عاش في المنزل الثاني عندما كان طفلاً، قبل أن ينتقل في النهاية إلى المنزل الثالث. ولوهلة استدعت ذكريات الماضي فيه شعلة الحنين الذي لا يكاد ينطفئ، وعندما يحل الغسق يتسلل إلى مسامعنا صوت آلي ثم صوت فرقعة، حيث تبدأ المولدات بالعمل، وسرعان ما ينبعث وهج من النوافذ المشيدة من الطابوق المفرغ.

تُشارك قبيلتا شهران وقحطان أهل عسير هذا النمط المعماري الاستثنائي، والذي يقول بعضهم إنه يعود إلى عصر ما قبل الإسلام.

خرجتُ من أرض قحطان، أو بالأحرى من منطقة وادي سروم، حيث تنتشر صخور هائلة من الجرانيت، وهي غير ثابتة لدرجة أن المرء يشعر أن بمقدوره إسقاطها بنقرة من إصبعه. وتجتذب كل محطة كنت أتوقف بها في قرية تجمعًا كبيرًا من الناس؛ حيث يتجادل الرجال والفتيان فيما بينهم حول من ينبغي أن أزوره لأتذوق شاي الضيافة الذي لا ينفد، وفي جميع الأماكن تصطف الحقول التي تشبه رقعة الشطرنج على القنوات الضيقة لنظام الري، وتنتشر على نطاق الحقول أبراج دفاعية أو حصون تستخدم كصوامع للغلال، وينفذ إليها الضوء والهواء عبر شقوق رأسية متشابكة تظللها أغصان السنط لإبعاد الطيور والحيوانات الأخرى، ويبدأ عُمَّال التذرية ومعهم الشُّوك والمذاري بإلقاء الحبوب والقشر والقش في الهواء، وهم واثقون من فرزها بفعل الريح. وبين الحين والآخر، أسمع صوتًا مكتومًا لمقلاع، وأراهم يتعاملون معه بمهارة منقطعة النظير.

تبصر عيناي عند أحد المنعطفات منظرًا مذهلًا، حيث تتزين جميع البيوت بالألوان النابضة بالحياة، كما لو كنا قد سِرنا إلى مسرح أوبرا باهر الأضواء.

وبتحريض من مجموعة من الصغار الذين تُعجبهم دهشتي أذهب نحو هذه الشرائح التي تُذكّر بمدينة نابولي الإيطالية، ويبدو أن الرسام قد اتّبع قاعدة واحدة فقط تتمثل في ألا يضع لونين متجاورين من الدرجة نفسها، وتضم أعماله مزيجًا من الجماليات والاستخدامات العملية، حيث يجعل الطلاء من الجدران محكمة غير نافذة.

ومن خلال السيارات الموجودة في الجوار والأحذية التي توجد عند المدخل نستطيع أن نُخَمّن أعداد السكان وجنسهم، وتتزين الأبواب برسوم تنسيقات الزهور

في كل عام تكتسي البيوت ثوبًا جديدًا، ومع اقتراب موعد الاحتفالات الدينية تتولى النساء مسؤولية إعادة تزيين بيوتهن، ويتعاملن مع الجدران كأنها لوحات يُعاد تشكيلها وإبراز أوجه الجمال فيها، وتستعرض كل هذه الرسومات مرح الأطفال والعمل الجاد لهؤلاء الفنانات، وهناك تفضيل واضح للتأثيرات المتنوعة والتناقضات الصارخة للألوان والإيقاعات الغريبة على الملامح الجمالية العربية، ويُعاد تجديد المحتوى الموضوعي دائمًا من خلال التنسيق المتنوع للزخارف واعتماد الألوان البسيطة، ويعتمد الفن الإسلامي على نمطين

ولم تسلم الشاحنات من هذه الزينة، فبعد أن حلت مكان الجمال أصبحت وسائل لنشر الرسومات الجدارية، فهياكلها مزخرفة بأشكال هندسية بألوان برّاقة تعبّر عن المملكة متعددة الألوان، وعلى الأبواب رسمت مناظر ريفية تحيي في الذهن مشاهد الصحراء وعوالم الخيال، حيث تعانق المناظر الطبيعية المياه الهادئة؛ مناظر خالية من المنظور والظل أو الكائنات الحية من بشر أو حيوانات، فلقد جرت العادة على أن تستخدم النساء ألوان المعادن الطبيعية أو ألوان الخضراوات، وقد طُلِيَت الجدران في البداية باللون





البديعة بألوانها الفاتنة، ويطرق أحد الصبية على الباب بمطرقته الثقيلة، ويُفتح الباب من خلال سلسلة يتم جذبها من الداخل، ولا يملك الزائر إلا أن تعتريه الدهشة من هذا النظام الرائع للتحكم عن بُعد، وأن يتبع دليله.

من الداخل تشعر أن البيوت لطيفة وهادئة خلف الجدران السميكة، ويلفت إبداع فرشاة الطلاء الأنظار، حيث تغمر الألوان كل شيء داخل البيت: الباب والأرضية والجدران والسقف والسلالم، لم يُغفِل هذا الرسام المتمكن من لوحته شيئًا.

أساسيين من الزخارف: الزخارف الهندسية وزخارف الزهور لتجنب أي إشارة للتماثيل والأصنام، وتتيح لغة الزخرفة هذه نطاقًا واسعًا من التعبير أمام الفنان، فنجد رسام الجدران يستكشف إمكانات مزج الألوان بشكل فطري، وربما يُعبّر عن ملامح الطبيعة بأشكال هندسية، فتتخذ التضاريس الجبلية شكل مثلثات ويتحول الماء إلى خطوط متعرجة، وتتجسد الأشجار في خطوط مستقيمة بحركات مائلة.

باختصار، يهدف هذا الفن الشعبي إلى غرض واحد فقط، ألا وهو إضافة لمسة من الحيوية والجمال إلى الحياة.

الأبيض باستخدام صمغ النبات وطلاء جيري مائي من الجبس يسمى محليًا باسم بياض. وينتج اللون الأخضر من نبات الفصفصة المعصور يدويًا أو من القرنفل، بينما يتم تحضير اللون الأحمر من الطين الغني بالهيماتيت أو من الرمان، أما عن اللون الأزرق فيستخلص من نبات النيلة، والأسود من القطران النباتي. ولكن لم تعد الجدران تكتسي بألوان الخضراوات فحسب، فقد اتسع نطاق تنوع الألوان التي تبهر الأنظار بفضل الألوان الكيميائية. وبغض النظر عن اللون المختار، فدائمًا ما يكون اللون الأقوى والألمع والأكثر ظهورًا هو اللون الذي يخرج من وعاء الطلاء.

اللازم لبناء الجدران من خلال حساب عدد الطبقات.

يُفتح المدخل باتجاه شروق الشمس إذا كانت طبيعة الأرض في هذه البقعة تسمح بذلك، وفي الطابق الأرضي تُفصل حظائر الدواب عن المجلسين، وبالنسبة للدرج يتسبب عدم انتظام سلالمه في تعثر المرء بشكل خطير في الظلام شبه التام، وفي الطابق الأول ينفتح الدرج على بسطة سُلم تُشكّل دهليزًا يُفتح فيه مجلس وغرفة معيشة وغرفة الاستضافة (مقلّط) وغرفة لإعداد القهوة وتناولها. وفي الطابق الثاني توجد غرفتا نوم، أما السطح فيوجد في الطابق العلوي، ويُستخدم كشرفة ويتميز بإطلالة بانورامية، ويقع المطبخ والمجلس الرئيس في الأبنية الملحقة بالمنزل.

وفي حظيرة مجاورة ظهر لي عنصر جذب جديد يتمثل في جرو ذئب مفعم بالحيوية، وهو الحيوان البري الوحيد الذي تمكنت من رؤيته حيًا، فكثيرًا ما يصادف المرء الفزّاعات التي تتجسد في صورة أجسام الذئاب والضباع المخططة والثعالب وحتى قرود البابون المتدلية من الأشجار في بعض الأحيان.





قرية من قرى قحطان في منطقة سراة عبيدة: مزارع يُجهّز الأرض لزراعة الذرة الرفيعة والبرسيم.
فزّاعة (أدناه) صالحة لكل الأغراض خارج القرية نفسها.



حضر مالك المنزل لمقابلتي بعد أن علم بحضوري، وجلسنا معًا أمام (اللوحات) الرائعة التي تملأ جدران مجلسه (غرفة الاستقبال)، ويتكون الأثاث من سجاد فخم ومساند مريحة لاتكاء المَرافق عليها، إنها البساطة التي استمدتها المنازل من الخيمة البدوية فأدت إلى إثراء الحياة الحضرية.

وقد شعرت بدفء الترحيب في أثناء تناولي شاي الضيافة، ذلك الدفء الذي قلما تشعر به في بيوت الغرب، وعلى طول الجدران بعيدًا عن متناول يد الأطفال يُعلّق حامل بندقية وبندقية وبعض الخناجر، حيث يتباهون بمقتنياتهم من الأسلحة ويتخذون من جدران منازلهم معرضًا لها، وتصدر من المبخرة أصوات طقطقة بينما يفوح دخانها العطر في أرجاء المنزل للتخلص من الروائح الكريهة وطرد الأرواح الشريرة.

في جميع أنحاء البيت يمكن العثور على الملامح الزخرفية، وتخضع العناصر المكتسبة من الثقافة الغربية للمهارة اليدوية المحلية، ومن أجل الانسجام مع الجو العام يكتسي الراديو وصندوق المناديل بقماش مطرز بتصميمات زهور.

يخبرني مضيفي أنه في السبعين من عمره بالرغم من أنه يبدو أصغر من ذلك بعشرين عامًا، فما السر وراء ذلك؟ إنه النظام الغذائي الذي يعتمد على حليب الماعز والزبد المصفى، ولسوء الحظ يتبع أطفاله نظامًا غذائيًا غربيًا ويروون ظمأهم بالمياه الغازية؛ لذلك لم يعد لديهم من القوة والتحمل ما كان لأسلافهم. يستغرق بناء المنزل ثلاثة أشهر من العمل الشاق، ويتم خلط الطين اللزج بالرمل والقش المفروم والتبن الذي يضاف إليه الماء للحصول على القالب المناسب، وبعد ذلك يُلقى هذا الخليط في قطع مبللة إلى البنّاء الذي يجلس على الجزء المبني من الجدار.

يضع البنّاء طبقة جديدة من الطين ويضغط عليها بقبضته، وتتشكل فتحات النوافذ ببساطة من خلال ترك ثغرة في طبقة واحدة أو طبقتين، بينما تتكون الأرضيات من سلسلة من السنط أو جذوع النخل، ويتم وضع شبكة من الفروع والطين عليها بزاوية قائمة، والغريب أن الجدران تُبنى من الداخل دون سقالات، طبقة تلو الأخرى وطابق تلو الآخر، وتستغرق كل طبقة يومين حتى تجف، وبالتالي، من الممكن تقدير الوقت

من بين ركام صخور الجرانيت، تنتشر الأنقاض في كل مكان – أجزاء من جدار أو جذوع أبراج مُزيّنة بالكوارتز، ونادرًا ما توجد صخور مطلية بالألوان، فعلى حد علمي لا توجد سوى تلك الصخور المطلية بالهيماتيت في جبل النير شمال غرب المخواة في جنوب الحجاز، وعلى النقيض من ذلك تنتشر الرسومات على الصخور بغزارة، ويمكن اكتشافها على الفور بنظرة خاطفة. هنا مثلًا، نرى على الصخور رسومًا متداخلة لفرسان على مطايا رائعة يحملون رماحًا تبدو كأنها تطفو فوق أكتافهم، وتعكس ضراوة حقيقية في نوع الجاذبية التي تربط الفرسان بمطاياهم، ولكن يبقى السؤال: هل هو مشهد صيد أم معركة؟ وهناك، تفصح لنا الصخور عن موسوعتها الخاصة المتمثلة فقط في الجمال بشكل متتابع؛ جمل تلو الآخر، وغالبًا ما تُرسم القوافل بأحجام متناقصة لتعكس المشهد المناسب. وقد لا يرى العديد من أهل الغرب في هذه الرسومات إلا مجرد انعكاس لعناصر البيئة الرعوية. لكن هذا النمط من الفن الصخري يشير في الواقع إلى أن صانعيه يمتلكون وعيًا عميقًا وفطريًا تجاه الفن.

يقل ارتفاع المنازل وتتماهى ألوانها مع ألوان الأرض كلما توغلنا جنوبيًا، بينما يؤدي بناء بعض المنازل البرجية إلى الحفاظ على الأراضي الصالحة للزراعة، وقد يصل ارتفاع هذه المنازل إلى تسعة طوابق، وقد تزيد.

إذًا فقد أدخلت المنازل الحديثة على القرى التناقض بين القديم والحديث، حيث أدت وتيرة التغيير المتسارعة إلى جعل المنازل الجميلة التي تعود إلى العصور السابقة تبدو كمفارقة تاريخية، وفي قلب مدينة أبها العتيقة يكاد لا يبقى شيء من الماضي، ويبدو قصر شدا (المقر السابق لإقامة الأمير الأول لأبها، منذ أكثر من ١٥٠ عامًا) دخيلًا على محيطه، فقد مُحِي الماضي جراء محاولات التحديث المتسارعة، ويتوارى العنصر التصويري في السوق، حيث تُقام الأسواق في يوم ثابت من الأسبوع في كل مدينة، وفي أبها، يقام السوق يوم الثلاثاء.

تسود الجو رائحة قوية، وتنتشر في الأكشاك جميع أنواع البضائع: السلال والأثواب المطرزة والمباخر المطلية، إلى جانب أطباق الخبز وزجاجات العطور، إنه مزيج غريب من الألوان المحلية والسلع الغربية الرخيصة.

وعلى الرغم من الفوضى الظاهرة إلا أن هناك قدرًا من النظام، حيث تخضع السوق للتنظيم الصارم الذي يحكم الأسواق العربية، وتُصنّف الأكشاك وورش العمل وفقًا لنوع التجارة، بينما تمثل الأنشطة الرئيسة: (الشراء والبيع والمساومة) محور كل شيء يدور في السوق.

قد نلتقي بمجموعة من الفلاحين الذين يرتدون عباءة جلد الغنم التقليدية والميزر والصوف والقبعة ذات الحافة العريضة والطفشة؛ وهي تحمي من المطر والشمس، ويقول بعضهم: إن هذه القبعة ظهرت لأول مرة مع الوجود البرتغالي في شبه الجزيرة العربية قبل خمس مئة عام تقريبًا، وبدرجة أقل يمكن رؤية النساء وهن يرتدين (الزي) التقليدي، وهو عبارة عن قطعة طويلة من الجلد تغطي الظهر لحمايته من الأحمال.

حتى وقت قريب لم يكن تراث عسير الثقافي يلقى اهتمامًا كبيرًا، أما اليوم فلا يمكن لأي شخص من المنطقة أن يشاهد التقاليد المعمارية المحلية وهي تتلاشى دون أن يغمره الإحساس بالخسارة، فهناك بعض الإنجازات الكبيرة التي حققها المهندسون المعماريون المعاصرون، وقد جرى التخلي عن الهياكل غير المعبرة عن أي أنماط لصالح المراجع التقليدية والمخططات اللونية، ويظهر نمط جديد من المنازل نشأ بشكل جزئي نتيجة لوضع الفتحات الشهيرة (المضادة للتآكل) بين الطوب. وعلى الرغم من عدم جدواها حاليًا فإنها تفرض في كل مكان طابع عسير المميز الذي يسهل تمييزه على الفور، وفي الوقت ذاته، فهي تربط الماضي بالمستقبل، وخير مثال على ذلك قرية المفتاحة التي أصبحت مركز الملك فهد الثقافي في سبتمبر ١٩٨٩م، والتي يهدف المتحف الموجود فيها إلى الحفاظ على تراث عسير بالكامل، كما يتسنى للزوار مشاهدة الأغراض والأدوات التي ميّزت الحياة في هذه البقاع ■





إلى اليمين وبالأسفل: قرية من قرى قحطان في منطقة سراة عبيدة جنوب خميس مشيط. تنعم المباني الشاهقة بالنسيم العليل، كما أنها تتميز ببنائها من مواد بناء رخيصة التكلفة، وكانت تؤدي دورها في الماضي كوسيلة مناسبة للدفاع.



طفلة صغيرة تفتح باب حظيرة الدواب.



المباني الشاهقة مثل هذا المبنى (إلى اليسار)، في منطقة أبها، كانت تُستخدم كأبراج مراقبة وصوامع غلال محلية.

قرية من قرى قحطان في منطقة سراة عبيدة (بالأسفل). العائلات تسترخي على شرفات السطح زاهية الألوان، وتظهر الكابلات الكهربائية ومسارات السيارات كآثار للحداثة.



القرويون القحطانيون بالقرب من أبها يسحبون المياه من أحد الآبار.



نمطان تقليديان في مبنى واحد بالقرب من أبها. أعمال حجرية بكوارتز مزخرف، مع التأكيد على فتحات النوافذ، يرجع تاريخها إلى قرن ونصف من الزمان، ربما يبلغ عمر الهيكل العلوي المُثبّت نحو ٣٠ عامًا.





في مزرعة على جانب التل من قبيلة قحطان بالقرب من أبها، تظهر أسطح المنازل والنوافذ بألوان مفعمة بالحيوية وسط الطبيعة.



تتكون قرية القحطاني في المرتفعات
بالقرب من سراة عبيدة من منزل
واحد متعرش.





منطقة معيشة مطلية بألوان زاهية تطل على مزرعة سهلية ذات طبقات من الطين في مرتفعات قحطان.

غالبًا ما تظهر المداخل والنوافذ بألوان زاهية.







لا يوجد مكان في عسير منازله مزخرفة بألوان كثيرة أكثر من منازل أهل قحطان في وادي سروم. وقد احتفى السكان باستخدام الدهانات الصناعية الحديثة لتحل محل الألوان القديمة الطبيعية والأكثر نعومة.

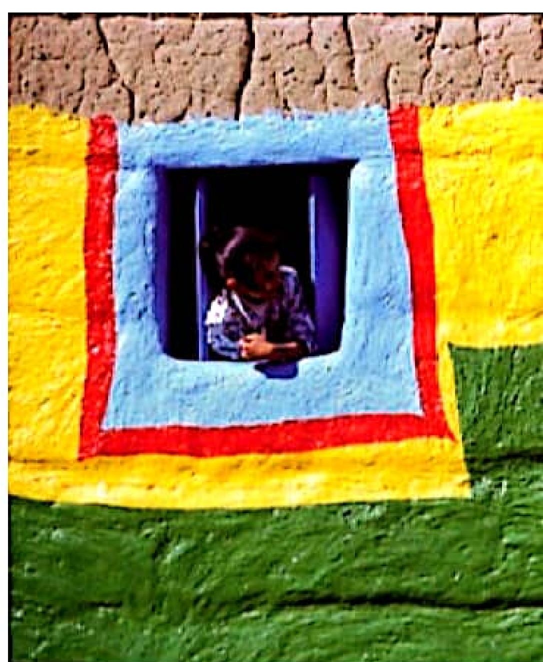






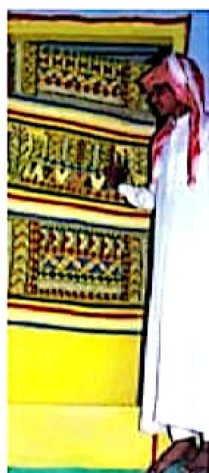


يُبدّع سكان وادي سروم في تزيين المداخل والنوافذ والسلالم وأماكن المعيشة، وتتنافس العائلات لابتكار أنماط أكثر جرأة، لكنها جميعها تتبع القواعد الإسلامية لتجنب تمثيل الكائنات الحية.









داخل المجلس التقليدي، أو غرفة استقبال الرجال، في منازل في وادي سروم، تشكل الأسلحة النارية والخناجر تقليدًا وجزءًا من زي الرجال، وفي المدن يحل طراز أزياء نجد محل التصميمات التقليدية في عسير.







الفصل الثاني:

رحلة إلى قلب

تهامة قحطان

في قلب منطقة عسير لا تزال إحدى القبائل تحتفظ بهويتها، تقع منطقة تهامة قحطان بين الهضبة العالية للسروات والشريط الساحلي للبحر الأحمر، وتتكون من الوديان العميقة التي ترعى فيها قطعان الماعز، تجعل قسوة المناخ والتاريخ القتالي الطويل لأهل عسير من القيام برحلة إلى المنطقة أمرًا صعبًا، ويمتلك السكان غريزة مناطقية متطورة للغاية، فالغرباء غير مُرحَّب بهم، ولا يعيرون ما يحدث خارج أراضيهم إلا القليل من الاهتمام، هذا إن وُجد، وتتجلى بوضوح الشخصية المميزة لسلالة قحطان هنا أكثر من أي مكان آخر.

ينقسم السكان الذين أطلقتُ عليهم اسم (رجال الطيب) إلى قبائل عديدة خلاف قبيلة قحطان، ويتخذون من تربية الماعز مهنة لهم، وينتشرون في جميع أنحاء تهامة الجبلية، ولكن هذا الكتاب لا يُعنى بالحديث عنهم، وهم يشكلون معًا مجموعة ثقافية ذات طابع مميز خاص بها يتشابه أفرادها بشكل لا يمكن إنكاره، ويفتخر القحطاني بقدرته على معرفة هوية قحطاني آخر من خلال مجموعة من العلامات التي لا يستطيع تحليلها بشكل دائم، ولكنها تضمن له صدق حدسه، لقد اختبرت هذه الموهبة في مناسبات عدة من خلال الاستعانة بصور فوتوغرافية، وفي الأسواق الأسبوعية من الضروري أن تتحلى بالقدرة على تمييز أفراد قبيلة أخرى، ويكون ذلك غالبًا من خلال بعض التفاصيل البسيطة الخاصة باللباس أو المفردات المستخدمة، ولكن، في بعض الأحيان يلزم وجود فروق أكثر دقة، مثل الإيماءات والوضعية وتصرفات معينة.

شباب قحطان بتهامة الجبلية يرتدون الزي التقليدي في سوق الفرشة.

كانت هذه المنطقة حتى عام ١٩٨٥م عالمًا مغلقًا، فلم تكن تربطها أي شبكة طرق في ذلك الحين، وهذه العزلة -إضافة إلى المظهر المميز لبعض رجال القبيلة- هي أحد أسرار جاذبية هذه المنطقة.

تقع قرية الفرشة -التي تُعدُّ إحدى نقاط الالتقاء الأسبوعية في تهامة قحطان- عند مفترق الطرق، وهي قرية محظورة تقريبًا لا يكاد يحظى الغرباء فيها بشيء من القبول، فالزيارة إلى هنا بعيدة كل البعد عن كونها رحلة سياحية.

توجد هنا نقطة تفتيش تابعة للشرطة على الطريق إلى تهامة قحطان، ومن الضروري توضيح الغرض من الزيارة، وبعد المناقشات سمحوا لي بالمضي قدمًا ليستقر بي المقام على المرتفعات، في مكان ليس بعيدًا عن قسم الشرطة حتى أتمكن في اليوم التالي من الاستمتاع بإطلالة بانورامية على الوادي.

إنها صحوة مهيبة، حيث تُتيح تهامة القحطانية للمرء بحرًا من القمم، والتي تصل موجاتها إلى الأفق البعيد في سلسلة من الظلال الزرقاء أحادية اللون، وتظهر أسفل سفح الجبل مسارات متعرجة بشكل أكثر وضوحًا عندما يبدد الفجر الضباب.

سرعان ما أزعجني ذلك التدفق المستمر للمركبات القادمة من السهل، وهي محملة بالحطب ومتجهة نحو مرتفعات سراة عبيدة لبيعه إلى محارق الفحم.

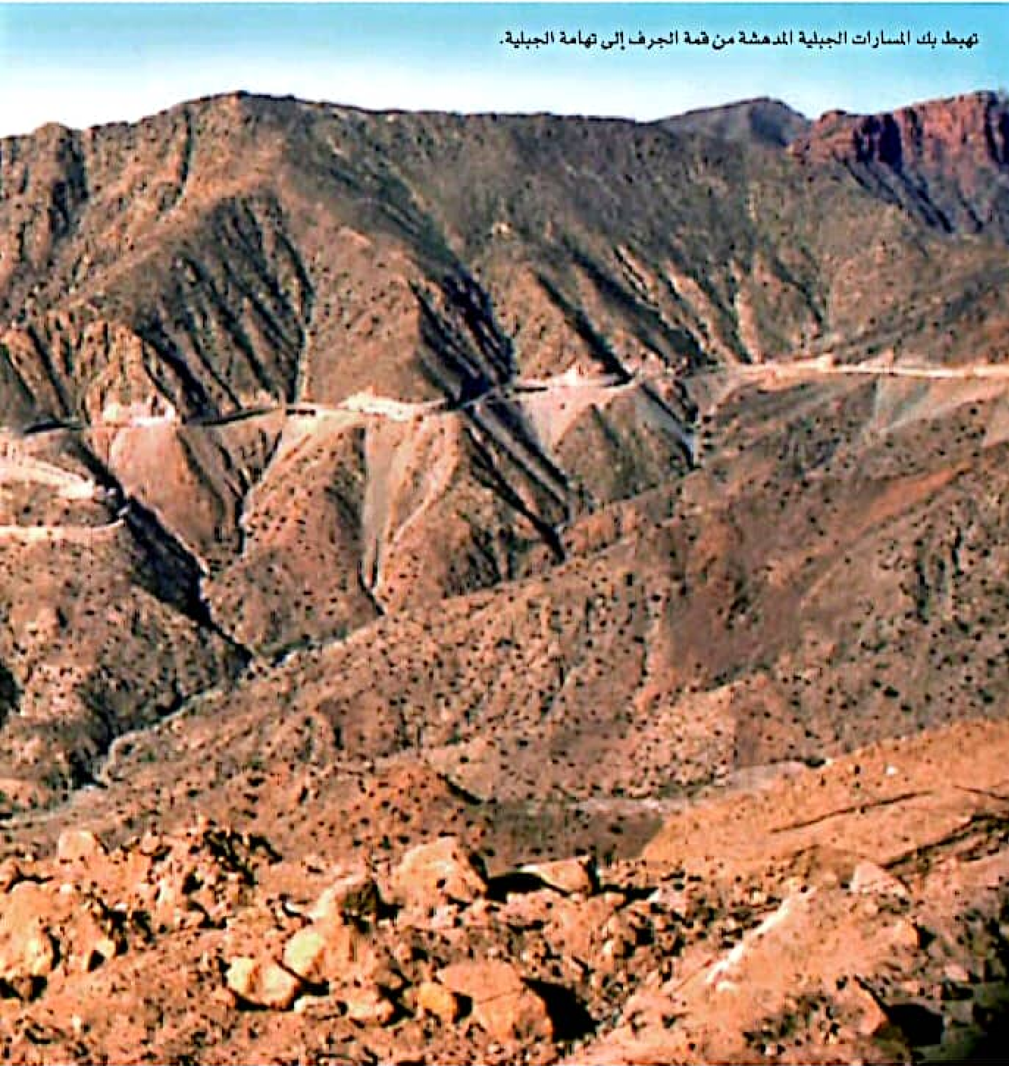
من الواضح أنني اخترت اليوم غير المناسب، سيخرج جميع السكان العاملين من تهامة قحطان اليوم، ويجب أن أنتظر حتى الغد للذهاب إلى السوق.

في فجر اليوم التالي، وبينما كنت أفرُك عيني لطرد النوم، سمعت صوت أسطول من السيارات يمرّ، وفي هذه المرّة كانت السيارات متوجهة إلى الفرشة لشراء العلف للأغنام، إذن اليوم هو يوم السوق، ينجذب الزائر بشكل طبيعي نحو السوق، حيث يخرج أفراد القبائل مرة واحدة في الأسبوع بعيدًا عن مخيماتهم من أجل الحصول على مؤن جديدة أو مزاولة عمل تجاري، سلكت طريقي في أحد المسارات التي تنحدر بي إلى الأسفل لنحو ألف متر في سلسلة من المنعطفات الحادة، ويمتلئ المسار بالحفر، وتتخلله منحدرات من صخر الشست الصلب اللامع، ولا يمكن للمرء أن يفقد التركيز للحظات، حيث تتشابك أشجار التين مع النباتات الملتوية الغريبة بمنحدرات الجبال، ما يفرض على الزائر توخي الحذر بشكل كبير، أما عن المناخ فالحرارة هنا شديدة بالفعل والرطوبة عالية، وتتسم المخيمات بأنها ذات طبيعة بسيطة بدائية، وقد تتخذ شكلًا أكثر بدائية يتمثل في أكواخ مستديرة مصنوعة من الأغصان، وتنتشر تلك المخيمات على طول حافة الوادي، أو تُنصب عند سفح الجبل.

وعلى ضفاف الوادي تتشابك أشجار الدوم ذات الجذوع المزدوجة عند تجمعات المياه، حيث لا تبعد المياه كثيرًا عن السطح، وتُشكّل أنفاقًا جميلة كثيفة الشجر، وتنتشر بين حقول الدخن الخضراء منازل خرسانية ذات زوايا، وفي الجوار يقع مزيج متنافر من الأكواخ والمقصورات المكونة من البلاستيك الأزرق الذي يُضاف كطبقة نهائية على المواد التقليدية.

وبينما كنت أتابع سيري قاصدًا السوق أدهشني وجود كل هؤلاء الرجال الذين يجلسون القرفصاء على جانب المسار، ولا يمكن أن تعرف ما إذا كانوا ينتظرون شيئًا أو يستمتعون بعدم فعل أي شيء.

تشق كثير من السيارات طريقها نحو السوق سعيًا لاجتياز المسار عبر الحشود الكثيفة التي ترتدي أزياءً زاهية الألوان، وينتشر الرجال في جميع الأرجاء، ويجلسون على المقاعد، ويقفون على ظهور السيارات، وتجلس مجموعات منهم على الأسطح المنحدرة. أدهشني التناقض الذي حدث في هذا اللقاء الذي يجمع بين الملامح البدوية العتيقة والتطور المعاصر للسيارات اليابانية، وبتلك السهولة المربكة استغنى البدو عن الجمال والحمير لصالح المركبات المناسبة للطرق الوعرة، والتي يتعاملون معها بكل مهارة يمتلكها أفضل السائقين المشاركين في سباقات المناطق الوعرة، ولكن يجب ألا نخلط الأمور، فهؤلاء الرجال لا يسيرون في المسارات من أجل كسر الأرقام القياسية، وتُعدُّ ملكية السيارات واحدة من التنازلات القليلة أمام الإغراء الذي تقدمه الحضارة الغربية، وسواء أحبّ المرء ذلك أم أبغضه، فقد أصبحت السيارة الرمز الحديث لتحركات البدو وحريتهم، ويشعر المرء بالفخر الكبير بملكية هذه السيارات التي تُغسل بانتظام، ويقودها البدو إلى الوادي، ويفتحون الأبواب وصندوق السيارة وغطاء المحرك، ويستمتعون بغسلها ومسحها وتلميعها بالكثير من الماء، وفي مكان ليس ببعيد يكتمل المشهد بطائر رأس المطرقة الأنيق، وهو أحد أنواع طيور اللقلق أو الطيور الخواضة.


تهبط بك المسارات الجبلية المدهشة من قمة الجرف إلى تهامة الجبلية.

وفي أحد المقاهي يُدخّن مرتادو المقهى الشيشة أو النرجيلة ذات الأنبوب الطويل المبهج باعتبارها أحد طقوس المنطقة، ويستمتعون بالخدر اللطيف الذي يُحدثه التبغ المصنوع من الفاكهة المجففة.

تحاصر شاحنات النقل منطقة السوق، ولا تهدأ حركة المركبات أبدًا، وعلى ما يبدو، يتجول الشباب بلا هدف، حيث يلقون التحية على أصدقائهم ويتوقفون شاردين أمام الأكشاك، ويمرون مخلفين وراءهم رائحة العطور، بينما يطالع أحدهم نفسه في المرآة الخلفية للسيارة، وفي هذا العالم الرعوي تقترن صفات الأناقة والجمال بالرجال دون النساء، لقد دفع التناحر بين القبائل في نهاية المطاف إلى الشعور بالضجر، وهو نوع من الجمود الذي يتيح مزيدًا من الوقت للنرجسية، وينصبّ اهتمام الذكور بشكل خاص على تسريحات الشعر، وتوفر الزهور والأوراق النباتية والعطرية نطاقًا واسعًا للغاية يمكنهم الاعتماد عليه لتزيين أنفسهم كل يوم، وخاصة في أيام الجمعة. وبالرغم من أن معظمهم من البدو، فإن هؤلاء (رجال الطيب) يظهرون شغفًا كبيرًا بالنباتات، وعلى النقيض من ذلك فإن أهل قحطان في الهضبة العليا يكتفون بوضع نوع واحد من الأزهار في شعورهم، ألا وهو غصن الريحان.

أتساءل متى سيبدأ هؤلاء الرجال في استخدام الزهور الصناعية في تحدٍ للطبيعة سريعة التغيّر، وفي الوقت ذاته أشعر بالاندهاش من تنوع النباتات المستخدمة: الياسمين، والريحان، والشيح، والمخمل الفرنسي، وأزهار شجرة الكابوك، والخيمية، والكادي. والقائمة تطول لتشمل أسماء عامية لا يمكنني تقديم مكافئ لها باللغة الفرنسية أو الإنجليزية، ويحرص الرجال على إضفاء طابع مميز على أغطية الرأس؛ فمثلًا، يمكن للرجل أن يبرز تأثير باقة الزهور بإضافة كميات كبيرة من أوراق الشجر، وقد يحاول فيما يتعلق بالتأثير اللوني أن يستخدم درجات مختلفة من اللون الأخضر من خلال الجمع بين الأخضر الفاقع مع الأخضر الشاحب للشيح، وقد يهدف إلى إحداث تأثير تجريدي من خلال التخلي عن تداعيات النباتات الطبيعية واستخدام مواد أخرى مثل القطن أو الصوف، وبالتالي، يبرز التفرد في هذا الصدد، وقد فعل الإغريق القدماء الشيء ذاته مع أكاليلهم الخضراء المختارة بعناية من براعم الورد والبنفسج والزنابق والنرجس.

لاحظت أن الرجال يرتدون الفترة، وهي غطاء رأس مُرقّط باللونين الأحمر والأبيض، ويهبطون من الهضبة العليا لشراء الماعز أو لفت الأنظار إليهم للإعجاب بهم وبأناقتهم، وعند رؤية أكاليل الرأس المُرقّطة هذه تتحرك بين السكان المزهرين تتبادر إلى الذهن صورة لمجموعة من الفراشات وهي تتنقّل بين الزهور بحثًا عن الرحيق.

وبالطريقة ذاتها، تحتل العطور مكانة مرموقة في حياتهم، للدرجة التي جعلتني أتفهم فجأة القوة الغامضة والغريبة للعطور، ومن هنا تربعت على عرش الصدارة في السوق القوارير والدوارق والنباتات العطرية المُقتطفة حديثًا والتي تفوح منها أزكى الروائح.



تُعدُّ السوق -قبل كل شيء- مكانًا للالتقاء أو تجديد روابط الصداقة، ويتبادل فيها الناس آخر الأخبار.

أتجول في السوق، وأمرُّ على قِرب من جلود الحيوانات التي تفيض بالزبدة، كما ألاحظ صفوفًا عديدة من نبات الكالاباش الخياري الممتلئ، وأكوام ثمار القرع التي تأخذ شكل الكمثرى.

يبيع النحّالون العسل الثمين في زجاجات، ويُباع هذا الذهب السائل مقابل ما يصل إلى ٢٥٠ ريالًا سعوديًا - أي نحو ٤٠ جنيهًا إسترلينيًا - للزجاجة.

وفي مكان قريب يمكن سماع ضجيج المعدن الذي يُدق على السندان، وأرى شفرات الخناجر التي يتم صقلها، وفي بعض الأحيان تُحوَّل شرائط امتصاص الصدمات في السيارات إلى شفرات، لم يكن هذا التحول مفاجئًا للمسافرين ذوي الخبرة الذين رأوا من قبل تحوُّل صناديق المياه الغازية إلى مصابيح زيتية، أو تحوُّل طناجر طبخ الكسكسي واستخدامها كهوائيات لأجهزة التلفاز.

ما يزال الماعز يُشكِّل المحور الأساسي للعمل، ويبدو الماعز هنا نحيلًا وقصير الشعر، وهو يختلف عن النوع الأكبر حجمًا المنتشر في الهضبة العليا، وتُنسج من جلوده ذات الشعر الطويل خيام البدو السوداء الشهيرة.

هناك نوعان من البدو يحددهما الاختلاف في التضاريس ويرتبطان بهذين النوعين من الماعز، حيث يمارس بدو تهامة الرعي الرأسي في منطقة محددة، في حين يمارس بدو الهضبة العليا الرعي الأفقي الذي يتميز بالانكماش والتمدد الواسع حول المستوطنات.

يفحص المشترون المحتملون الماشية فحصًا دقيقًا، مع جسّ لحمها وتحديد الأجزاء التي تحتوي على شحوم، وبعد ذلك تبدأ مرحلة المساومة على السعر، التقيت في السوق برجل من نجران من قبيلة (يام) على الحدود اليمنية، وفوجئت بقدومه من مكان بعيد لشراء عنزة، أوضح لي أن الماشية هنا أفضل، وتكثر حولها النباتات، أما في نجران فليس هناك سوى الرمال.

تحتشد بعض النساء في ظل جدار ويخفين وجوههن بحجاب، وهن غير مألوفات للعين كما أنهن متحفظات، ويشبهن البدويات الإفريقيات في قوامهن، وتبدو أزياؤهن أشبه بما ترتديه الفلاحات في أمريكا اللاتينية، ويرتدين سترات باللون النيلي تعلوها ثلاثة أقراص من عرق اللؤلؤ مُرصّعة على قلادات من خرز زجاجي مُعلّقة واحدة فوق أخرى على صدورهن، بما يشبه العقيق المتعرج، بالإضافة إلى حزام جلد مُضفّر حول الخصر يُمسك نوعًا من رداء (السارونغ)* الزي الشعبي في جزر الملايو، وجميعهن يرتدين قبعات مذهلة محاطة بأجراس صغيرة على سلاسل متلألئة بنجوم لامعة - مرتجلة من دبابيس المفروشات. وتمنحهن أرستقراطيتهن الطبيعية وملامحهن الجميلة التي يمكن تمييزها من خلف الحجاب ووقار ملابسهن رونقًا وأناقة عفوية.

***



شاب قحطاني في تهامة الجبلية.

لا يزال الختان من العادات التي يخضع لها بعض الذكور في المنطقة، وعادة لا يُجرى إلا بعد البلوغ، وهو من العادات التي تمثل اختبارًا أكبر لشجاعة الرجال، وتقلل أيضًا من خطر الإصابة بالعدوى، لكن بعض العائلات تجد أن تكلفة الاحتفالات التي تعقُب ذلك باهظة، كما أن الولادة في المستشفيات أصبحت الآن أكثر شيوعًا، وهناك يُجرى الختان بعد بضعة أيام من الولادة.

ويمكن أحيانًا التعرّف على الصبية غير المختونين من خلال تسريحة شعر غير مُعتادة تُسمى توبا، وهذا يعفيهم من المشاركة في النزاعات لأنهم لا يُعتبرون رجالًا بعد.

ترتبط الرجولة ارتباطًا وثيقًا بمعرفة الفنون القتالية، ويتباهى كل رجل بدوي بما يقتنيه من أدوات قتالية، مثل حزام رصاص ومسدس وبندقية ربما ترجع أصولها إلى جيبوتي أو عدن، أو قد يفتخر بامتلاك بندقية ماوزر الألمانية التي ورثها عن أسلافه من عصر الإمبراطورية العثمانية، وقد تعرفوا أيضًا في الآونة الأخيرة على سلاح الكلاشينكوف الروسي، ويتباهى الرجال فيما بينهم باقتنائهم لهذه الأسلحة.

لا تكتمل الاحتفالات عادة إلا بدويٍّ عالٍ للطلقات النارية في الأودية شديدة الانحدار، وجرت العادة على أن يرقص الرجال والنساء معًا، في هذه الأيام يرقص الرجال في حفلات الزفاف والاحتفالات الدينية، بينما تظل النساء على مسافة بعيدة إلى حد ما.

تتميز الرقصات بطابع عسكري واضح، وهو تذكير بالماضي القتالي لهذه القبائل، ويقفون جنبًا إلى جنب، ويُشكّلون قوسًا لدائرة تبدأ بعد وقت قليل في التأرجح ببطء على إيقاع أغانيهم، وفجأة يخرج أحدهم من الخط ويقفز ويلوّح ببندقيته، ويعقبه واحد إثر واحد، ثم يتشابكون في مبارزات وهمية دون أن تصيب الضربات أحدًا، وبعد ذلك تُترجم حركاتهم العدوانية إلى مشهد يتسم بالفخر.

ويُطلق السعوديون على الخنجر التقليدي الذي لا يزال شائعًا في جنوب شبه الجزيرة العربية محليًا اسم خنجر أو جنبية.

يُعدُّ هذا الخنجر ضمن الحلي التي يتزين بها الرجل، وهو دليل واضح أيضًا على قدرته على الدفاع عن نفسه، ويضع الرجال الخنجر عموديًا في منتصف الحزام، وهو يعتبر رمزًا للرجولة مع الغمد المنحني والقبضة العاجية (تصنع أحيانًا من الوعل أو قرن الماعز). وغالبًا ما يُزيَّن الخنجر باعتباره قطعة مجوهرات، ويُستدل منه على مكانة صاحبه.

ينفتح الأطفال على هذا العالم بكل حرية ويحاولون تقليد الكبار بكل ما بوسعهم، حيث يقتني الصغار أيضًا ألعابًا على أشكال خناجر وأحزمة رصاص ومسدسات من البلاستيك، ويحاولون رسم ملامح الصرامة على وجوههم مثل الكبار.

ويشتهر البدو ببراعتهم البالغة في فنون القتال والفروسية، فضلًا عن شجاعتهم وحماستهم القبلية

* السارونغ: الإزار الذي يرتديه سكان إندونيسيا وجنوب شرق آسيا.

الأصيلة المقترنة بنشأتهم وأسلوب تربيتهم ونمط معيشتهم، وهو أمر لا يخفى على أحد، ويتباهون بذلك في كل مكان، ومن الواضح أن هؤلاء المحاربين ليسوا منتظمين أو منضبطين بما يكفي للاندماج في جيش نظامي، إنهم بالتأكيد أكثر ملاءمة للتسلق فوق جبالهم وأخذ العدو على حين غرة في الشِعاب الضيقة.

أشعر بالغربة أكثر إذا حل المساء، حيث تلاحقني أعين الرجال بنظرات ملؤها الشك والريبة، لكن معظمهم أشاح ببصره عني وبخل حتى بالنظرة الخاطفة، لم أرَ في عيونهم سوى الاستغراب والدهشة، وثمّة شعور عام بعدم الارتياح، هؤلاء القوم ينتمون إلى الماضي، صحيح أني كنت ألتقي بهم صدفة لا عن سابق ترتيب، لكن هذه اللقاءات العابرة تُحرّك فيَّ شعورًا بالحنين الحالم إلى الماضي.

في كل مكان هناك البدو الرُحّل الذين يرتدون أثوابهم الطويلة ذات اللون النيلي، ويَلفّ بعضهم قطعة من القماش تُعرف محليًا باسم (تاج) أو (المنتقى) حول رؤوسهم مثل العمامة، ولكن معظمهم يطويها ويربطها حسب التقاليد القديمة، ويرتدون حول أجسادهم قطعة من القطن المنسوج بخطوط متفاوتة العرض ورقيقة ومتباعدة، يبلغ طولها حوالي مترين وعرضها ١٫٢ متر، وتنتهي بحدود مخيطة بزركشة وشراشيب: الوزرة، ولا يزال هذا الزي اليمني النموذجي يُصنع في مدينة بيت الفقيه اليمنية، ويعود إلى زمن بعيد، ومن خلال الخطوط الملونة مختلفة العرض يمكن التعرّف داخل القبيلة على الملامح التي تُميّز السلالات المختلفة، كما في لباس الكاروهات المربعة الإسكتلندي.

يشير هذا اللباس المميز إلى أن الغزو الثقافي لمنطقة عسير لم يكتمل بعد، ويظل اللباس، في جميع أرجاء العالم القبلي، معيارًا جماليًا وقبليًا واجتماعيًا لصورة الشخص الذاتية، أما القميص المُقلّم الملون بألوان زاهية، فهو علامة على التكامل الثقافي المنتشر بشكل كبير، أضف إلى ذلك أنه يتماشى مع (السارونغ)، وتُشكّل المجموعة معًا مزيجًا رائعًا من الخطوط الأفقية للسارونغ مع الخطوط الرأسية للقميص.

يسير شابان جنبًا إلى جنب، أحدهما يُعلّق إصبع يده اليمنى حول إصبع اليد اليسرى للآخر دليلًا على الصداقة، بينما ينخرط شابان آخران في نقاش مطول، ما الذي يتحدثان عنه بكل هذا الاهتمام؟ أحاديثهما متعة حقيقية يكتنفها الشغف ولا نهاية لها، يقف أحدهما في وضعية مدهشة، إذ يثني ساقًا، مثل اللقلق، ويحملها دون أن تبدو عليه علامات التعب.

كنت ألتقط صورًا فوتوغرافية بحذر مُتقن، وهو ما أعاق استخدامي لكاميرا التصوير الفوتوغرافي في أكثر من مرة، فبالرغم من رحلاتي المتكررة في هذه المنطقة فإن كثيرًا من الأشخاص يظهرون القلق نفسه إزاء التقاط الصور، ويزعجهم هذا الأمر، حيث يتحسسون من ظهورهم أو ظهور ملامح حياتهم الرعوية أمام العالم الآخر، ويودون الحفاظ عليها بمنأى عن أعين الغرباء، وفيما يتعلق بتهامة قحطان أكثر من أي مكان آخر من الأفضل عدم تخطي بعض قواعد الآداب



الثوب الطويل ذو اللون النيلي جزء أساسي من الزي التقليدي بين قحطان في تهامة الجبلية.

العامة المُتّبعة، وقد يرفضون الأمر برمته ويبدؤون في إصدار التحذيرات اللفظية بل وربما يصل الأمر إلى حد إبلاغ الشرطة.

وعلى الرغم من الحذر الذي كبّلني في بداية مُدّة إقامتي في منطقة قحطان فقد كنت أبذُل قصارى جهدي لتجميع مكتبة صور شاملة.

للحصول على صور فوتوغرافية جذّابة للرأس بشكل خاص كان لا بد لي من المبادرة كي لا أُقابل برفض مفاجئ. ذات مرة، استأذنتُ عجوزًا في التقاط صورة له لما يتمتع به من هيبة، ففاجأني بهذا الردّ المدهش: «ولمَ ذلك؟ لستُ مَعلمًا تاريخيًا!»، شعرت بالأسف، فقد كانت لحيته الطويلة المنسوجة بخيوط فضية تشبه لوحة رائعة.

يعترضني أحدهم محاولًا إيقافي عن التصوير ومناداة من حوله كما لو أن جهاز إنذار قد تم تشغيله بالخطأ، وما من أحدٍ يأتي في الوقت المناسب لإيقافه، لم تكن كلماته مفهومة لي، ولكن الموقف واضح بما يكفي، تُثار الحساسيات الجماعية من شخصية المصور المشبوهة والتلصصية والطائشة.

تجتذب المشاجرات حشودًا ضخمة ومعادية، حيث يكونون في حالة تأهب ويستجيبون لانفعالات التوتر بسهولة ويترقبون المواجهة، وبمجرد أن تنقضي الموجة الأولى من الغضب، أرتكبُ جريمة ثانية؛ أنصرفُ إلى بعض الأشخاص الأكثر ميلًا للمساعدة في الحشد، الأمر الذي دفع ببدوي شاب ومتغطرس إلى الاصطدام بي.

تحضر سيارة شرطة للتحقق من سبب المشكلة، وبالضغط بقبضة يده على البوق، يناديني السائق ليخبرني أن التصوير ممنوع، وعندما لا ينجح في إقناع الشخص الأجنبي بذلك يقتاده بالقوة إلى قسم الشرطة، هل سيُطلب مني مغادرة المنطقة؟ أهذه هي العقوبة التي جلبتها رحلاتي إلى هذه البقاع و(جرائمي) المتكررة في التصوير طوال المُدّة الماضية؟

يتربع رئيس الشرطة على كرسي قديم، وفي الغرفةمكيف هواء متهالك ومجموعة من الملفات غير المرتبة، وينظر إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ كمن يتفحص نباتًا في معرض للزهور، صافحته وقد كانت لحظة مهمة، فالعرب يعتمدون على حدسهم، فمن خلال النظرات المتبادلة والضغط على اليد أستطيع عادة معرفة ما إذا كنت مقبولًا أم لا، أواصل المصافحة بشكل عشوائي نوعًا ما، ويهديني سجينان ينتظران الترحيل أغراضهما الخاصة مسرورَين.

أنظرُ حول الغرفة، معظم الوجوه ساكنة، وهو أمر ذو دلالة غير محمودة، يسأل رئيس الشرطة عن هويتي وأسباب وجودي هنا، أطالب بحقي، ينصت لي باهتمام ويصعب عليه أن يتخذ قرارًا دون سابقة. أستطيع أن أرى أصابعه المتوترة تمر أسرع فأسرع على سبحته، أُجيب بهدوء عن اتهامات البدوي بإهانة الكرامة وأُبرز الوثائق الرسمية التي تحمل ختم المملكة العربية السعودية -سيفان متقاطعان تعلوهما نخلة- ويحملان الصيغة التمهيدية الكلاسيكية، البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، فيتهجى اسمي بتفاصيل دقيقة، كما لو كان يتعوذ من الأرواح الشريرة، أُقدّم نفسي ككاتب أتمنى إجراء بحث في المنطقة عن الكتاب التالي الذي



في مشهد حيوي بسوق الفرشة، أُلقي القبض على المؤلف قبل السماح له بمواصلة التصوير.

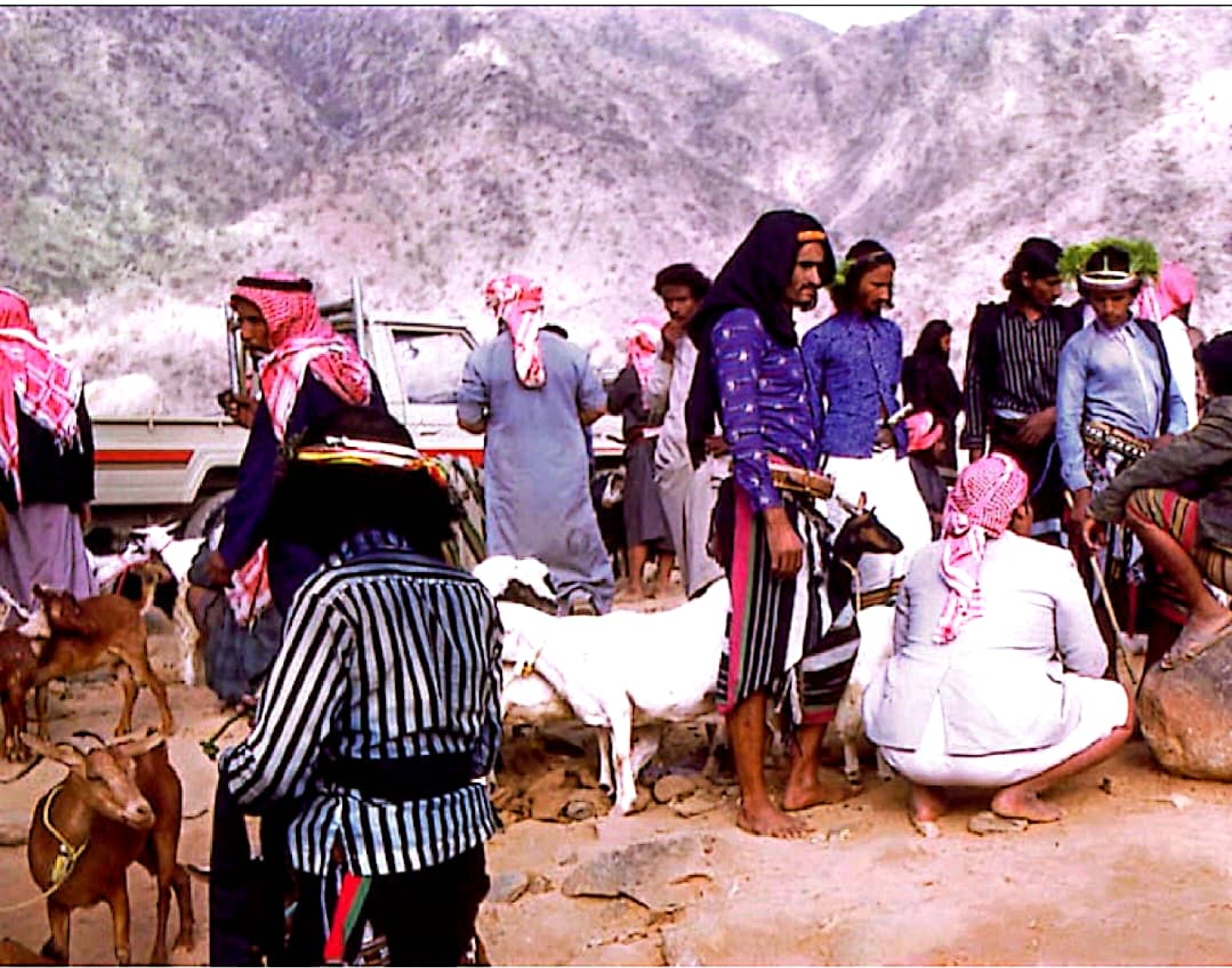
أعمل عليه (كتاب سابق نُشِرَ بالفعل ليضمن صحة ادعائي)، يقول ممثل الأمير إن لديه أوامر محددة: التصوير ممنوع. وهو يريد مني أن أفعل ذلك، ففهمت منه أن التقدميين يعتبرون هذا الجزء من البلاد طريقة عيش بالية، فحصنت السلطات صوري مع توجيه النقد الضمني لي. يشرح له الشرطي أنني يمكنني مواصلة عملي، كإجراء استثنائي، بسبب الحصول على توصية من أحد الأمراء الذي يحظى بالاحترام، لقد ربحت الجولة الأولى، يرمقني خصمي بنظرة تعني أنه سينتقم مني، وينظر لي جميع الحاضرين نظرات استهجان تجعلني أشعر بأني ارتكبت جرمًا عظيمًا، ولكن الشرطة وضعت حدًا لآخر همهمات المعارضة المبهمة ضدي وقالوا إنهم يقدمون لي الحماية من خلال لعبة الخصومات الخفية التي لا أفهم قواعدها، ولكني أعلم أن الامتيازات المكتسبة اليوم بعد عناء قد تُسحب مني في الأسبوع المقبل...

أعطتني الشرطة إذنًا مطلقًا بمواصلة عملي، ولكن قبل أي شيء آخر تقتضي اللياقة أن أخضع لمراسم الضيافة، وقد حرصتُ على عدم الرفض خاصة لأن تشارك الخبز والملح -بحسب التعبير العريق- يزيل عن القلوب البغض والشحناء ويقوي أواصر الصداقة. قبلتُ احتساء القهوة الخالية من البن، فقد كانت في الواقع قشورًا منقوعة في ماء مغلي بنكهة الزنجبيل، وهو المشروب المفضل في جميع أنحاء تهامة.

ترجع أصول إعداد القهوة بهذه الطريقة إلى اليمن، وذلك لأسباب اقتصادية: لم تكن المنازل تعرف حبوب البن نظرًا لتصديرها بشكل متزايد، وبدلًا منها صنعوا مشروب (القشور) الذي يضطر المرء إلى بذل جهد للاستمتاع بمذاقه؛ لأنه لا يشبه مذاق القهوة التي نتناولها على الإطلاق.

ووفقًا لتقاليد البدو، ينبغي للضيف أن يحتسي عددًا فرديًا من الأكواب، وقد جرت العادة على تحديده بثلاثة أكواب، حيث يُعدُّ ملء كوب واحد فقط إهانة يمكن تفسيرها على نحو: تناول شرابك وغادر! (هناك مثل قديم يوصيك بتقديم كوب واحد فقط لعدوك)، وعلى النقيض من ذلك يشعر المرء بالسعادة عندما يرى في أسفل الكأس ما يكفي لتبتل شفتيه فقط، ولا يمكن تجاوز هذه الطقوس التي تُتبع بدقة في جميع أنحاء المملكة، باستثناء منطقة تهامة الساحلية.

لقد ذهب ظمأي وغمرتني الثقة، وعُدت إلى السوق وواصلت التصوير، لأُقابل بالأجواء المشحونة والنظرات المرتابة ذاتها، إذا كنت قد ربحت الجولة بمساعدة رئيس الشرطة، فكنت لا أزال أشعر في



بعض نظراتهم بأني لستُ من أصدقائهم، يتدخل أحد رجال الشرطة مرة أخرى ويطلب مني الفيلم، لا شك أن شخصًا مستاءً مني قد طلب تدخّله، ولأني أتمتع بالكثير من الخبرة في هذا النوع من المواقف لأجعله يمضي في سبيله، واجهت طلبه بالرفض، فهرع المسؤول إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن وقاحتي بعد أن أزعجه أن يقاومه أجنبي علنًا بكل هذا الثبات والثقة، تبعته ووجدت قائد الشرطة مرة أخرى الآن بعد أن أصبح صديقي يأخذني بيده ويقودني إلى السوق. ولم أملك إلا أن أتبعه منصاعًا وبكل هدوء واحترام. ينقسم الحشد من الوسط ويُسمح لنا بالمرور. ولكن كل ما كنت أريده حينها هو أن أختفي، أن أهرب من تلك النظرات والفضول غير الطبيعي لهؤلاء القوم. نسير بالقرب من بائعي السلع الرخيصة والأقمشة والعطور والتوابل. أثلجت صدري تلك الدهشة التي وجدتها في أعين البدو بعد رؤيتهم إياي في صحبة ممثل القانون والنظام، يدًا بيد، كما لو أننا صديقان قديمان. بعد ذلك تأتي مجموعة من الشباب المتغطرس ليبيعوا ثوب قماش مصبوغ باللون النيلي، غير أنهم يتوقفون عن عملهم ليُحدِّقوا في هذا المشهد...

وبفضل مرافقي أقوم الآن بالتصوير في كل مكان، وأُثير حفيظتهم وأتحدى بعض التقاليد. في البداية، شعرتُ بالخجل ولكني مضيتُ قُدمًا بالرغم من ذلك مدفوعًا بحماستي المفرطة، ثم تحلّيت بالمزيد من الجرأة، وأعددت استوديو مفتوحًا على السماء في فضاء السوق الخالية قبالة جدار قبر يخفي وراءه غابة من الحجارة القائمة، يوجد حجران قائمان على كل قبر، أحدهما على الرأس والآخر عند القدم.

ثمة أشخاص يتبعونني كظلي مبتهجين، وكانوا منشغلين بتصفيف شعورهم وينظرون في المرايا التي في أيديهم، أتأمل في هذا المشهد الساحر من الإعجاب بالذات قبل أن أصوِّرهم تخليدًا لذكراهم من خلال صوري، يشعرني التقاط مثل هذه الصور الشخصية بالسعادة، وتخبرني الوضعيات التي يتخذها الأشخاص أمام الكاميرا بالكثير حول الفكرة التي لديهم عن أنفسهم، لا حاجة لتنبيههم ألا يتحركوا، فهم يعرفون ذلك فيتخذون الوضعيات الثابتة مباشرة، وبفضل استعدادهم المدهش الدائم قد يصبح القحطانيون في تهامة أكثر السعوديين حبًا للظهور في وسائل الإعلام، ولكن ذلك على الجانب الآخر قد يفقدهم شيئًا من عفويتهم.

أحتفظ لديَّ بصورة شاب جذّاب، يضع في خصلات شعره زهرتين ورديتين كبيرتين مثل الزنبق، وهما من (العدنة) تلك الشجرة القوية الراسخة ذات الجذع المنتفخ مثل قنينة.

تثير الصور الفورية حماسًا لا يخالجه أي تحفظ، ولكن الصور التي لا تظهر على الفور تثير العكس: عداء يشوبه عدم الثقة والإحباط، وبمجرد أن حصل الرجال على الصور الفورية هرولوا بعيدًا كما لو أدركوا فجأة اقتراف خطيئة.

تقترب شاحنة من الاستديو الخاص بي، كانت جوانبها المُضلّعة مزيّنة بألوان زاهية مع تصاميم هندسية منقوشة، وبالنظر داخلها تعجبتُ من الخيال الجامح لمصممي الديكور الذين حولوه إلى فضاء ساحر، تبدأ الزخارف من السقف مثل الأعمدة الهابطة، وتتزين لوحة القيادة بالقطيفة الحمراء، وتُبطّن المقصورة بالستائر وكرات الزينة والأقمشة الزاهية.

يعتري الوافدون الجدد الفضول الذي سرعان ما يتحوّل إلى حماس للمشاركة! يتنافس الرجال الثلاثة على المقعد الأمامي ويتدافعون بأكواعهم ليتجهّزوا قبل أن يستسلموا لاقتحام المصور، يتجهزون باهتمام كما لو كانوا ذاهبين إلى حفل، ومع ذلك، يحتاج المرء إلى أن يتخيل نفسه حبيس الجدران في وقت احتفال لمعرفة مقدار الطاقة التي يمكن أن يبذلها هؤلاء الرفاق أقوياء البنية ليظهروا في أبهى حلة، إنهم يبرعون في عرض مواهب مصممي المناظر الطبيعية على رؤوسهم، ويتناوبون على فرك قطعة من حجر الكحل على مسطح لتكحيل أعينهم، فالكحل يمنحهم قوة تعبيرية بدائية، ويقوم أحدهم بترتيب عصابة رأسه المزينة بزهرة المخمل، ثم ينزلون من المقصورة أخيرًا بعد أن تجهزوا ويلقون بأثوابهم ذات اللون النيلي على أكتافهم بلا مبالاة، وينظرون إلى المصوّر بأعين تمتلئ فخرًا وعزمًا أكيدًا.

تغمر أشعة شمس الظهيرة السوق، ويمكث الجميع في المسجد، وكأحد صور التقدم حلّت أصوات المكبرات الصاخبة محل صوت المؤذن العذب، بعد أن خلا من نماذج للتصوير، وأتجه نحو المسار المؤدي إلى أحد المخيمات في مكانٍ لا تزال تحافظ فيه الجبال على مسافة كافية بينها وبين التمدن، واثقًا أنني سألقى بها ترحيبًا.

اعترضتني شاحنة لأعمال الطرق، وصاح بي السائق الذي يُفترض أنه مشرف، قائلًا: ابتعد عن هنا، هؤلاء الرجال خطيرون وقد يطلقون النارا فأكدت له إنني أعرفهم جيدًا، لم يدهشني هذا التحذير كثيرًا، فأصدقائي السعوديين لم يكفّوا عن تحذيري. وربما اعترض السكان المحليون لهذه المنطقة على أعمال الطرق التي يقوم بها العمال الكوريون، ووقفوا في سبيلهم، وعارضوا بشدة أن تُنتهك أراضيهم من خلال إنشاء طريق، فقد رأيتُ البدو لأكثر من مرة وهم يعترضون سبيل شاحنات العمال لمنعهم من ممارسة مهامهم.

على أي حال مضيت أقفز بين سفوح الجبال أحيانًا، وأجتاز في أحيان أخرى الوادي الذي يتدفق بين شلالات صخرية هائلة دون أن أبصر المسار بوضوح، كان علي المخاطرة بالتوغل، فليس من الممكن أن أعثر على أكثر المناطق بدائية على امتداد طريق رئيس، أما الخطر الذي يتنبأ به أصدقائي كثيرًا فهو الأعطال الميكانيكية، ونظرًا لعدم وجود طريقة مؤكدة للاستعداد له فقد قررت تجاهل الأمر برمته، وهناك أيضًا خطر حدوث عاصفة في هذه المنطقة تنتج عنها فيضانات عنيفة ومفاجئة، ويا لسوء حظ من يجدون أنفسهم في طريقها، للأسف سأعيش هذه التجربة بعد بضعة أشهر.

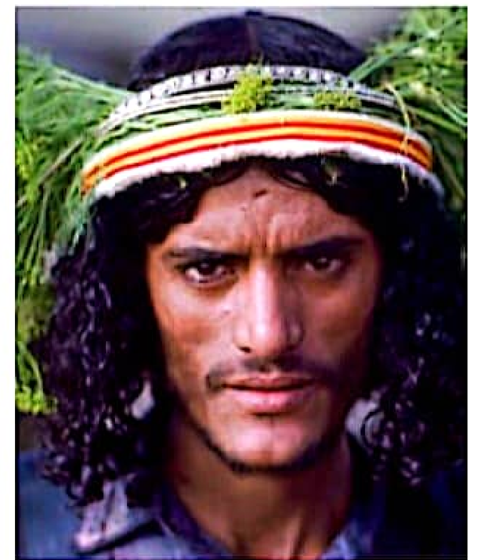
وعلى النقيض من باقي أراضي تهامة لا يظهر في الأفق أي كلب أو حمار، وأظن أن هذه المخلوقات غير المحظوظة لا تتحمل ظروف العيش في مثل هذه البقاع.

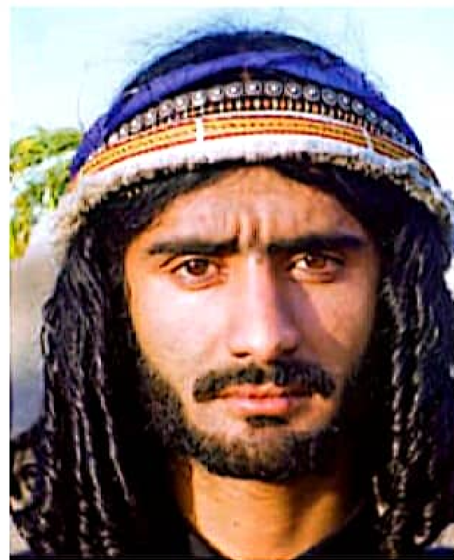
مررتُ في طريقي بشجرة جميز رائعة ذات جذع أبيض شاحب اللون، جرّدتها الفيضانات الأخيرة من جذورها الملتوية، وسلّطت ضوء النهار على طياتها الجوفية، يملأ الغبار الهواء، وحرارة الشمس تؤدي إلى تزايد الرائحة الكريهة.

وما بين أشجار السنط بأشواكها التي تُمثّل آفة حقيقية للإطارات ومصدرًا لعيدان الأسنان، تُمارس الماعز مهمتها بحماسة كالنحل فتتدهور بيئتها، وتتسم أشجار السنط الملتوية بفخامة منظرها أمام الرائي، حيث تتسع رقعة ظلالها الوافرة التي تتدرج من الأسفل إلى الأعلى.

عندما تُجرّد الأشجار في الوادي من أغصانها الأخيرة تطوي الماعز الطريق على امتداد الجبال شديدة الانحدار بحثًا عن الطعام، وتتيح لها حوافرها القوية أن تنجو من الصخور التي تتحرك عليها ببطء وحذر ولكن بثبات، وتسلك أكثر الطرق وعورة بالفطرة ودون إبطاء.

أرى شابًا بدويًا رياضيًا وسيمًا يتجول بلا كلل فوق التضاريس الصخرية بقدمين راسختين شأنهما شأن حوافر الماعز، وتبدو أصابع قدميه مرنة وناعمة مثل أصابع يديه، يحمل الشاب بندقيته خلف مؤخرة عنقه مثل النير، ذراع فوق عقب البندقية والأخرى فوق فوهة البندقية، وهي وضعية تعيق وصول الدم إلى اليدين بشكل سلس، أفتح معه حوارًا فنتفاهم ونتبادل المجاملات المعتادة، وأمامنا مباشرة توجد بركة مياه صغيرة، وتجذب قطعان الماشية في كل مكان انتباهي، ألاحظ ريشًا في غمد خنجر دليلي فأسأله عنه، يسحب واحدة على الفور ويخبرني أن ريشة النيص هذه تستخدم كمشط، وتسمح له بالاحتفاظ بمفرق شعره مُرتَّبًا، وهو







الشباب القحطانيون يميلون إلى تصميم أغطية الرأس المزهرة بأطوال هائلة، وتظليل أعينهم بالكحل، وتصفيف شعورهم، ويرتدي

مهتم للغاية بمظهره مثل جميع البدو في المنطقة من أجل أن يحظى بإعجاب الفتاة البدوية التي يود لفت أنظارها.

يتمتع جميع القحطانيين في تهامة بمهارة لا نظير لها في اقتفاء الأثر، وهم قادرون على تمييز آثار أقدام شخص عربي عن رجل أسود، وآثار أقدام الرجل عن المرأة، بل وربما معرفة ما إذا كانت آثار الأقدام لامرأة حامل أم لا، وربما يمتلكون أيضًا مهارات أكثر بساطة، والتي قد تظهر نتيجة للرصد الدقيق طوال الوقت.

علاوة على ذلك عثرنا على جمجمة لقرد البابون، فيتقمص رفيقي هيئة القرد ويصيح مثله لدرجة أنني شعرتُ كما لو كنت مع قرد بابون حقيقي، وتُعدُّ القدرة على إصدار أصوات الحيوانات لجذب انتباه الأصدقاء مهارة أخرى يتمتع بها هؤلاء القوم. ومما لا شك فيه أن البدو في الأزمنة الماضية قد استعانوا بتقليد الحيوانات البرية لجذب الحيوانات المفترسة، فمثلًا، لاصطياد نمر يجب على المرء أن يقدم نفسه أو يتظاهر بأنه يشبه الفريسة المرغوبة مثل (البابون)، وفي كثير من الأحيان كان يُعجبني ثراء الأصوات التي يصدرها الرعاة مع قطعانهم، يمكنهم بصورة فطرية أن يعيدوا اللغة إلى عناصرها البدائية، وذلك من خلال إحلال الصيحات محل الكلمات، كما في النداء على سبيل المثال.

واصلتُ القيادة على امتداد الوادي الجاف، وأُنهكت سيارتي لكنها لا تزال تعمل بكفاءة، ويمكن الاعتماد عليها. نحقق تقدمًا شاقًا في كثير من الأحيان على امتداد أسفل ممر ضيق، حيث يتدفق تيار هادئ، يبدو الجو ملبدًا بالغيوم، وأخيرًا نتوقف تحت ظلال شجرة جوجوبا (سدر) يصل ارتفاعها حتى عشرة أمتار، والتي يستخدم السكان أوراقها المغلية في علاج قمل الرأس، وتُعدُّ هذه المنطقة استثناءً من المناظر الطبيعية المعتادة في المملكة، وتكثُر وتتنوع بها النباتات، وتتشابك النباتات المتسلقة والنباتات العالقة الأخرى بين جذوع الأشجار لتنتشر وتحجب أقبية الأوراق ضوء الشمس.

يخفت ضوء النهار وأنا متلهف للوصول، يتألف المخيم من مجموعة من الأكواخ الهادئة والحيوانات الوادعة ووعاء طبخ على ثلاثة أحجار تُشكّل حمّالة ثلاثية القوائم، إلى جانب أغراض متنوعة، وشجرة تمر هندي هائلة مع بعض البذور الصالحة للأكل، وقد اعتراني الذهول الشديد بسبب ما رأيته من إهمال ونفايات منتشرة في كل مكان، حيث كانت الماعز تتجول بحرية وتدس حوافرها وأنوفها في الأطباق، وتخلف وراءها بعرها اللامع المكوَّر أينما تذهب.

على النقيض من بدو الصحراء الذين يمتلكون قطعانًا كبيرة من الإبل، نادرًا ما يمتلك القحطانيون في تهامة أكثر من عشرة إبل، وأغلبهم يمتلك اثنين أو ثلاثة، وتأتي الإبل -التي تسميها النصوص السومرية بحمير البحر؛ لأنها وصلت لأول مرة إلى بلاد الرافدين من الخليج- بعد الحمير كحيوانات لحمل الأثقال، وحتى اليوم يركب البدوي الحمار بينما يرافق الإبل المحملة بجميع السلع والمنقولات للمخيم، وكانت هذه هي القافلة الوحيدة التي رأيتها في وادي ضلع، فقد حلّت قوافل السيارات محلها بالرغم من استمرار اتباع التقاليد التجارية.

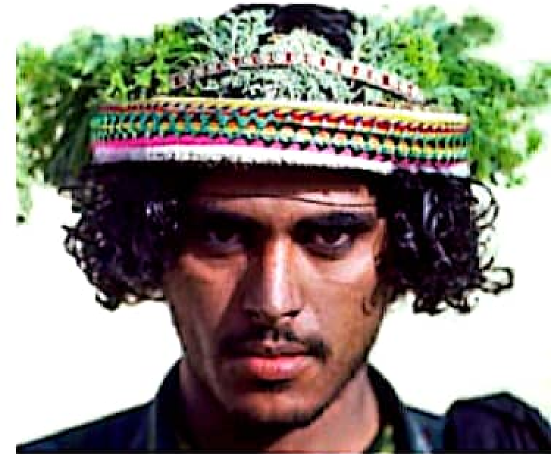
استأنفت التواصل مع إحدى العائلات؛ حيث تحتشد مجموعة من الأطفال، يدفعون بعضهم بعضًا ويترددون بين الفضول والخوف من الغرباء، وقد شرّفني صبي صغير بدعوتي إلى كوخه، وكأنها محاولة منه لدفع السمعة السيئة عن قبيلته، أعجبني تصميم باقة الزهور التي تزين رأسه، وأحببتُ جدية الرجال التي أبصرتها في هذا الصغير.

تجاوزت عتبة الكوخ لأجد نفسي في ظلمة هادئة، يوجد الكوخ المقبب (العشة) لقحطان تهامة في أشكال مختلفة حول العالم، وتُصنَع القبة من أعمدة منحنية تُغطّى بأوراق النخيل أو القماش، على النقيض من الخيمة، فإن الكوخ ليس مأوى متنقلًا، وإذا قررت الأسرة الرحيل فإنها تأخذ القماش الذي يغطي الكوخ، ولكنها تترك الهيكل في مكانه.

ينظر بعضهم إلى الكوخ باعتباره سلفًا للخيمة بسبب مظهره البدائي، بمعنى آخر، فهو عبارة عن بناء عتيق أُدخِلت عليه بعض التحسينات بمرور الوقت ليتحول إلى خيمة خفيفة ومتنقلة في الوقت نفسه، ومع ذلك تحتاج نظرية التطور هذه إلى مراجعة، حيث يبدو أن الأكواخ والخيام في شبه الجزيرة العربية تتبع التطورات المماثلة، ولإظهار ذلك دعونا نضرب مثالاً قبائل البدو في ربيعة وبني مفيد التي تعيش حول وادي ضلع، حيث تُعدُّ طريقة حياتهم وبيئتهم مماثلة لتلك الموجودة في قحطان تهامة، ومع ذلك فإنهم يعيشون في خيام ذات هياكل متوازية يطلق عليها بيت خصاف، حرفيًا (بيت الحصير)، مثل المأوى الجاهز: هيكل خشبي يدعم ألواح الحصير المصنوعة من النخيل، ويمكن فكها ونقلها.

يُستخدم جلد الماعز (ممترة) كسجادة تُفرش على الأرض (حرفة النسيج لا تُمارَس هنا)، والسقف بلون السخام، أركز حاسة الشم على تلك الرائحة القوية، وهي مزيج من منتجات الألبان والزيوت النباتية والبول والماعز وزفير الأنفاس القوية لدرجة أنها تظل مُدّة طويلة بعدها عالقة بملابسي ولحيتي، بينما تصدر الزنابير طنينًا كأنها تتوعدنا.

اصطدمتُ بهودج، وتفاجأت بامرأة شابة تُرضع أصغر أطفالها، وكنت قد نسيت أن أعلن عن وصولي



بعض منهم أيضًا عصابات رأس من الصوف بألوان متعددة.











بالغناء كما هي العادة. فقد أخفت وجهها على عجل، ويشير الحجاب هنا إلى أن المرأة متزوجة.

تستعين النساء بالأسلاك النحاسية التي يتم جمعها من المحركات الكهربائية، وتضاف إليها البراعة والمهارة التي يتميزن بها من أجل صناعة طوق العنق الرائع.

تبقي العصابة الحجاب في مكانه، وهي مثقلة بمفتاح وعقال مزدوج من النحاس في لوالب متشابكة. بعد مُدّة، بدأ الحجاب في التراجع قليلًا بشكل تدريجي ليكشف عما تمتلكه المرأة البدوية من سحر أخاذ. كانت مضيفتي تمتلك بشرة نقية، وتبرز ذقنها بعض الشيء وتتزين بالوشم الذي دائمًا ما يكون شكلًا واحدًا لجميع النساء، ويمتد من منتصف الشفة السفلى إلى نقطة الذقن ويُزخرف بنقاط صغيرة.

تحاول أن تُعيد إشعال النار التي تتطاير تحت الجمر، وسرعان ما يصيبني الاختناق بسبب الدخان، فأتجه نحو الفتحة الوحيدة التي تستخدم كباب ونافذة ومدخنة لأتنفس بعض الهواء النقي.

لا يرتدي رضيعها شيئًا إلا شريطًا من الجلد حول جسده، ولمنع اقترابه من النار تُقيد حركته بواسطة رباط، يتم تعليق كل شيء صالح للأكل وترتيبه وإبقائه بعيدًا عن نطاق الماعز، وعلى عكس السوق، لا يخفي الكوخ أي شيء بل يُعرضه، وفي مواجهة نافذة العرض هذه حاولت التمييز بين الأشياء الأساسية وتلك التي تُعدُّ مجرد عنصر مكمل للتعرف على الأغراض المهمة بالنسبة إليهم، وتكشف تلك النافذة عن إتقان رائع لتصنيع الجلود التي تُعدُّ سلعة أساسية متوافرة بين الرعاة، حيث يوظفون الحرف بذكاء لتلبية ضرورة مُلِحّة، وتتشابه حرفهم كثيرًا مع حِرف شرق إفريقيا من حيث النمط والتصميم.

تمتلك جميع العائلات المقتنيات ذاتها تقريبًا، وثمّة سحرٌ يكتنف هذه الأواني الخالدة التي لا تزال تحتفظ بخصائصها، والسؤال الآن هو: إلى متى ستستمر نساء هذه القبيلة في صنع تلك الأواني معاندات بذلك عجلة التقدم؟ ولا شك أنه من المُحبّذ حفظ أشكال الحرف التقليدية التي تمثل تعبيرًا قيّمًا عن احتياجات القبيلة وأذواقها.

تُشكّل جميع هذه المستلزمات جهاز العروس، ويجب عليها تحضيرها قبل الزفاف، كل شيء هنا متاح للعرض، وعلى النقيض، فإن غياب شيء أساسي مثل الهودج (بين البدو) دائمًا ما يُشعرني بأنني وصلت إلى موقع الحدث بعد فوات الأوان.

كل شيء هنا له قصة قصيرة: يُستخدم القرع (الحدجة) في جمع الحليب، ويوضع داخل كيس من الخيوط، ويُدعم عنق هذا الكيس بسلاسل مزخرفة بالجلد تُستخدم كممخضة للّبن، ويُعلّق تحت حامل من ثلاث عصي، ومن عنق هذه الثمرة يُقطع القمع، أو المصبع، والذي يُستخدم لتصفية الزبد المذاب. وبعد التقليب، يُحفظ الزبد في وعاء خشبي (قدح) مع غطاء جلدي، أما عن البُن، فيُحفظ في كيس (حسكول) يُفتح ويُغلق من خلال حبل رفيع، وتُزيّن كل هذه الأغراض بصدف وأظافر نحاسية، ويتم تمييزها بعلامة تخص القبيلة.

وقد جرت العادة على أن تتولى المرأة مسؤولية هذه المهام التي لا تدخل ضمن نطاق مسؤوليات الرجل، ويُسند إليهن العمل الأصعب، فالرجل لا يسحب الماء من البئر ولا يطحن الحبوب أبدًا، هذه المهام شخصية للغاية، وتنفيذها يشبه الطقوس، لدرجة أنه من المستحيل بالنسبة لهن أن يتخيلن رجلًا يقوم بها.

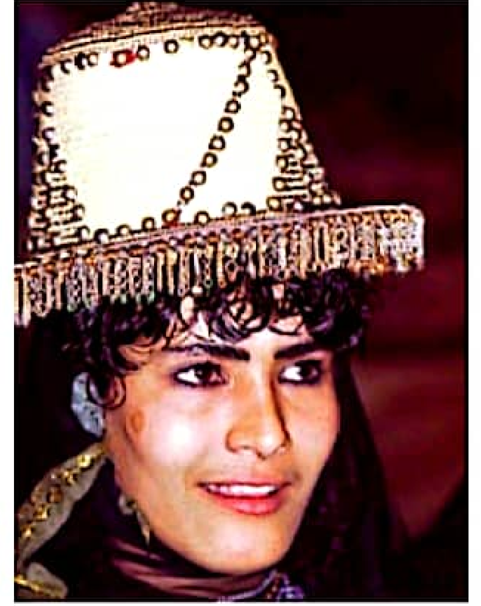
وأخيرًا بدأنا حوارًا، تحدثت فيه عن فرنسا فلم تستطع مضيفتي أن تستوعب حجم اتساع العالم، إذ إن عالمها محصور بين الجبال التي تسُدّ الأفق وتُحدِّد لها مساحتها، كما أنها ليس لديها أي فكرة عن مستقبلها، والذي لا يُمثّل الكثير في مرآة حياتها اليومية.

طلبتُ منها أن تسمح لي بتصويرها والتقاط صورة فورية لصغيرها، وقبل أن أعرض عليها انتابها الشك في حدوث شيء غير مألوف، ولكن ما لبثت أن وافقت على التصوير وسمحت لي بتصويرها باستخدام الكاميرا (التي تُعيد الصورة)، ولكنها ظلت تشعر بالقلق حيال ذلك، فالإنسان هناك ما يزال يشعر بالانتقاص من قدره حال تصويره فوتوغرافيًا، فالأمر يكاد يكون بمثابة انتهاك حرمة.

أخذتُ قبعتها (المظلة) من خطاف خشبي مصنوع من شبكة سلال دقيقة للغاية ومرصعة بدبابيس مطلية بالذهب، وبعيدًا عن كونها مجرد قطعة (إكسسوار) للحماية والتزيُن، فإن القبعة تُستخدم أيضًا كموضع لحفظ الأغراض الشخصية، وهي جراب مناسب لجميع الأغراض، أفتحُ غطاء الرأس بدافع من فضول يغمرني، وتنبعث منها رائحة الزيوت الكريهة المتبقية من الروائح المتبخرة، وهي خلاصة الزيوت الأساسية التي صُنِعَت منها.

يصل الزوج برائحته العطرية، ويضع الكلاشنكوف على مقربة منه ويضرب على طرف بندقيته بألفة هادئة ومحببة كإحدى عادات حياة المحارب، فإذا حُرِمَ من هذه الأداة القتالية فسيشعر أن رجولته قد اعتراها الضعف الشديد، ويتملك الزوج الفضول تجاه الكاميرا، تلك الآلة التي أحدثت ضجة في السوق. ويضع عدسة الكاميرا على عينه لينظر إلى زوجته، ويلعب كالطفل بالعدسة مندهشًا للخدع البصرية التي توفرها، وكطريقة ودية لتبادل الأغراض يُخرج سلاحه من جرابه، وهو مسدس آلي مصنوع في التشيك به خزنة ممتلئة بالرصاص وملفوف في خرقة بعناية، ويحمله إليّ، لم أعرف كيف أتصرف، فوجدتني أهنئه وأعيده إليه.

قمت بثني ساقيّ اللتين أصابهما الخدر ومدّهما، وشعرت بضعف في مرونة جسدي ونفاد صبري! يبدو







صورة لشباب قحطان يتزينون بعصابات رأس من النباتات تم التقاطها في الفرشة. تبذل الشابات القحطانيات (أعلاه) عناية كبيرة بتزيين القبعات المصنوعة من القش.

مضيفي غاضبًا من رغبتي الدائمة في الحركة، ولكن الكوخ مساحته صغيرة للغاية، كما أنني مصاب منذ الطفولة برهاب الأماكن المغلقة، تُحضِر الشاي فتاة صغيرة، وتتحاشى النظر إلى الغريب كما تقتضي آداب السلوك، ثم تختفي في لمح البصر. يحتشد الذباب منجذبًا إلى السكر حول أكوابنا، ويتزايد بجرأة ويبحث عن شفاهنا وأعيننا، ابتلعت واحدة وأنا أتنفس، وسحقتُ أخرى على وجهي في أثناء محاولتي لطردها، أما الثالثة فقد انطلقت بهمجية وطنين مزعج في كوبي قبل أن تنغمس في هذا الشراب الحلو.

وبعد أن سلى نفسه بمعدَّاتي لبعض الوقت، أحضر الرجل طبقًا مليئًا بقطع من لحم الماعز مطبوخة بالطريقة التقليدية التي يطلق عليها السعوديون (مندي)، حيث تُحفر حفرة وتملأ بالحجارة التي تُشعل فوقها نار لتسخينها. وبعد ذلك، توضع قطع اللحم بداخل الحفرة وتتخللها أخشاب عطرية، ويبدأ الرجال في الغناء وهم يغلقون الحفرة، بعضهم يغلقونها بالأخشاب وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالرمال، وتُجدر الإشارة هنا إلى أن المصاحبة الإيقاعية جزء مهم من أنشطتهم اليومية.

من الضروري التأقلم مع العادات المحلية وتناول الطعام في ذروة فترة الظهيرة، حتى ولو كان ذلك عكس المألوف، فتقديم عذر واهٍ لعدم تناول الطعام جريمة اجتماعية! ينضم بعض الجيران إلى الوليمة بلا تردد، يأكلون بشراهة وتغمرهم سعادة بالغة، يغمسون أصابعهم في الطبق، ويكسرون العظم لالتهام النخاع.

في هذه الأثناء، تقوم المرأة بترميم ثمرة قرع، وباستخدام مخرز معدني، تصنع ثقوبًا على جانبي الكسر وتمرر ألياف نخيل من خلالها، وبعد ذلك تشُدّها لتضم حافتي الكسر.

أبصرت رجلًا صامتًا يخلو وجهه من أي تعبيرات ويصفونه بالمجنون، وما من سبب هناك يستدعي إخفاءه، وربما يعكس ذلك نظرتهم إلى المرض العقلي التي يجب الانتباه إليها، فوفقًا لأفكارهم، يُعدُّ المجنون شخصًا يسيطر عليه الجِن فيجعله غير متحكم فيما يقوله أو يفعله؛ لذا يجب إبعاد هذه الروح الشريرة عنه، ويعتمد البدو بعض الطقوس للتخلص من الجِن تتمثل في ضرورة تحديد هويته وإجبار هذه الروح الشريرة على الإفصاح عن اسمها، وقراءة بعض الآيات القرآنية والأدعية لكي تنصرف هذه الروح الشريرة عن جسد المريض.

اندهشت من سؤال طرحه الرجل العجوز ذو اللحية المدهشة الذي التقيته في وقت سابق وهو: هل تدور حرب بين القبائل المجاورة في الوقت الحالي؟ بالنسبة لمصطلح القبائل فلا بد أنه يعني به الدول؛ لأن الجميع هنا يعرف أن جميع القبائل أصبحت تذوب في هوية واحدة هي السعودية نسبة إلى آل سعود.

يأخذ رجل مسحوقًا بني اللون (شمة) من علبة السعوط المصنوعة من القصدير، ويمررها على لثته السفلى، وبعد ذلك يبصق السائل في مجرى ينساب عند قدمي، والشمة مزيج من التبغ والليمون حيث تُترك أوراق التبغ في الشمس لبضعة أيام، وتُطحن لتصبح مسحوقًا، ثم تُخلط مع ليمون بنسب متساوية، وتنساب المادة على اللسان، ويبدو أن هذا الخليط يبعث على الاسترخاء.

يضع مضيفي الكلاشينكوف بين يدي، ويطلب مني التصويب نحو هدف مرتجل، وهو كتلة لامعة من الكوارتز على الجبل لا أكاد أراها، ولأنني الضيف، يعرض عليَّ إطلاق الرصاصة الأولى كما تقتضي المجاملة... لكني أخطئ الهدف! لم أتعامل مع بندقية منذ أن أنهيت خدمتي في الجيش، وقد سررتُ بأن يعلمني مضيفي درسًا هنا، تمتم بالعبارة الاستهلالية: بسم الله الرحمن الرحيم، تتردد هذه الصيغة على كل لسان، وتتخلل كل محادثة بغض النظر عن الموضوع أو الزمان أو المكان أو الظروف. وتُعدُّ نوعًا من المتلازمات اللفظية التي يمكنك أن تسمعها في أي مكان يجتمع فيه المسلمون، ويستخدمونها بشكل غير منتظم وحتى دون تفكير، ويشعر المرء بالقوة عند تلفظه بها، ولهذا يحمل الرجل البندقية في هدوء محددًا هدفًا بعيدًا ويطلق النار، إنه برهان رائع على مدى الدقة.

يحُلّ الظلام فجأة، وأُفضِّل أن أقضي ليلتي في مكاني لأني لا أرغب الآن في التجول في مكان لا أكاد أعرفه، خيمتي التي تتخذ شكل نفق والمقامة على ثلاثة قضبان منحنية من ألياف الكربون تثير دهشة أصدقائي، وبالرغم من تشابه هيكلها مع أكواخهم التي تتخذ هنا شكلًا نصف كروي، وكلما اتجهنا صوب قبيلة الريث المجاورة تصبح مستطيلة، فإن الخامات المصنوعة منها خيمتي وسرعة نصبها تبدو لهم من عالم آخر. ومع ذلك فقد خضعت أكواخهم إلى بعض التغيير تأثرًا بالاندماج الثقافي، إذ حلّت الأغطية القماشية محل سعف النخيل الذي كان يُستخدم لتغطية إطار الكوخ، ولكّن العنصر الثالث، وهو الرائحة، التي يُعرف العرب

بحساسيتهم البالغة تجاهها تُبرز الفارق بين المأوى الباهظ الذي أسكن فيه وبين مساكنهم التي منحهم الله إياها، إذ لا يشعرون داخل خيمتي بألفة البيت.

وبينما كنت ساهيًا أعلن صوت صرير المحاور عن وصول سيارة أعادتني فجأة إلى الحاضر، رأيتها قادمة وسط التراب المذهب بفعل الشمس، يقفز أربعة رجال بخفة ويقظة كبيرة، ويتباهون بأسلحتهم، وتتحرك عضلاتهم تحت جلودهم، وتلمع باستمرار باللون النيلي والشمس، نظروا إليّ للحظات ببريق في أعينهم ينُمّ عن تحدٍ، فشعرت بما يتمتع به هؤلاء الرجال من قوة عارمة، وبعد أن تعلمتُ من التجربة تحلّيتُ بضبط النفس، لتجنب أي مواقف قد لا تُحمد عقباها؛ فأنا أعلمُ جيدًا مدى سهولة استثارة غضبهم.

تنبثق أغصان الشيح من جدائلهم اللولبية، والتي تُحفظ من خلال وضع كمية كبيرة من السمن (الزبد المصفى)، وعلى الرغم من أن الزهور فوق رؤوسهم تضفي عليهم طابع المسالمة، فإنهم في الحقيقة ليسوا كذلك، يمكنك أن تكتشف ذلك من الطريقة التي يقتحمون بها خيمتي ويظهرون اهتمامًا بما بداخلها، وفي النهاية، يتدخل مضيفي حتى يتركوني وشأني، فمن مسؤوليات المضيف أن يحمي ضيفه، ويلقي إليّ نظرة تحذيرية كأنما يقول: يجب عليك ألا تطرح كثيرًا من الأسئلة على هؤلاء البدو؛ فكما نعلم لم يكن التعليم ضمن أولوياتهم، ويجب عليه أن يقنعهم بأنني لا أعمل ضد مصالحهم، وإنما أتمتع بحماية السلطات فقط.

لا يمحو غروب الشمس هذه الحادثة من ذهني على الإطلاق، ويبتعد المهاجمون المحتملون رويدًا عن المخيم وهم يغنون، ولأن غناءهم يتخذ طابعًا عسكريًا فإني أظنهم يرددون أغنيات حماسية، لا أرى منهم سوى صورة غير واضحة، إذ يصعب تمييز وجوههم في ظل الضوء الخافت للنار، والذي يمكن أن يضفي لمسة من الغموض، وحتى من القسوة على الملامح الأكثر براءة، إنهم يتصرفون مثل الثعالب التي تحتفظ بمسافة عن النار.

سرعان ما يحلّ الظلام، حيث يمكن رصد نجوم السماء، ويبدأ البعوض في الانتشار، ويرحل زوّار المساء أخيرًا بعد أن يصيبهم الملل، ويعود الرجال إلى بيوتهم بسبب حلول الليل، ويُشوّش على سكون الليل ثغاء ماعز صغير، صوت يثير الشفقة كأنه بكاء طفل تائه.

تدور البومة دورة حول الموقد، وتصدر صيحة طويلة وحزينة، ولبرهة يظهر خيالها تحت ضوء النجوم.

***

يوقظ شروق الشمس النائمين بالمخيم، وتحتفي الطيور ببزوغ الفجر، بينما يضفي الصوت المنتظم لمخضّات اللّبن إيقاعًا خاصًا على بداية يوم جديد، ومن خلال النصف المفتوح من خيمتي أترقب اللحظة المناسبة لقدوم الفتيات النحيلات وحلبهن للماعز، تبدو أصابع أقدامهن المصبوغة بالحناء وكأنها تعانق الأرض، لقد تصلب باطن أقدامهن جراء المشي بأقدام عارية، ويبدو أنهن يمشين بحذر لتخفيف تأثير الأجسام الحادة وأشواك السنط على أقدامهن، لا يمكنني أن أقلدهُنّ في ذلك أبدًا، ومع الإيماءات التي يصدرها باذر الحبوب تنثر إحدى الشابات الشوفان للماشية، وينقض الماعز على العلف، بينما يُصدر ثغاءه في مجموعة كبيرة، يثير ذكر الماعز المخيف الرعب في القطيع، ويدفعه إلى الوراء للحظة بقوة حضوره الطاغي، وتحمل فتاة صغيرة طفلًا على كتفيها كأنما ترتدي دثار فرو، وتسحب امرأة عنزة تثني من ساقها، بينما تفرك امرأة عجوز وعاء طبخ بالرمل، إنه المشهد الذي يتكرر يوميًا في حياة البدو.

تجثو امرأة على ركبتيها أمام المَسَن (حجر الطحن) وتطحن حبوب الذرة الرفيعة، يستخدم حجر الطحن هذا في جميع أنحاء تهامة، وهو حجر مصنوع من حجر مقعّر توضع عليه الحبوب، وحجر مستطيل تتم دحرجته عليه لطحن الحبوب إلى دقيق، لا تزال البكرات وأوعية الهاون الضخمة من هذا النوع تُستخدم في السودان، وتكثُر في الصحراء الكبرى، حيث إنها معروفة جيدًا لعلماء الآثار، وقد اندثرت بشكل جزئي في الحياة المنزلية وحلّ محلها حجر الطحن الصغير الذي تعود أصوله إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط المعروف بـ (الرحى).

وبعد ذلك، ستصنع المرأة أرغفة بحجم قبضة اليد، وتضعها على أحجار مسطحة في حفرة داخل الأرض، والتي تُستخدم كفرن، حيث تعمل النار على تطهير الخبز الذي تعجنه المرأة بيديها الملطختين من أي شيء قد يشوبه.

يُعدُّ إعداد الخبز من الطقوس المهمة، ويتكون من ثلاث خطوات: الطحن والعجن والخبز، وبالرغم من أن الأمر يبدو شائعًا وواضحًا كما هو مألوف، فإن عملية إعداد الخبز مهمة؛ إذ إن الخبز يُعدُّ بديلًا عن اللحوم، ويُعدُّ رخيصًا لإطعام القطيع، فضلًا عن أنه رأس المال الوحيد المتوافر للبدو؛ فالخبز هو وقود الحياة الذي يُقدَّم دائمًا للرحالة.

نجلس حول نار خافتة، ونروي عطشنا بمشروب الحليب والماء المحلى بالسكر والمنكه بالزنجبيل.

أحاول إبعاد أحداث الليلة الماضية عن ذهني، والعودة إلى الحياة المدنية تاركًا المخيم وأصدقائي خلفي، وأشعر أني على بُعد سنة ضوئية من المدينة التالية.

بغض النظر عن آراء الخبراء، أُحسّ بأخوة حقيقية مع هؤلاء (الرجال البدائيين)، وحين أعود إلى الحياة الحضرية أشعُر بتجدد ونشاط بفضل لقاءاتي معهم، يقنّع جميع الأشخاص الذين أتركهم هناك بالعيش وفقًا لنماذج مثبتة ومتميزة؛ إن مشاركة حياتهم ولو للحظات قليلة تكشف عما تبقّى من ماضينا، ومن الواضح أن الأخلاق السلوكية الاجتماعية تجعل التعايش والتعاون بين الأفراد ممكنًا، وتلك هي الأخلاق الفطرية التي يجدها المرء في كل ما يطلق عليه (قبيلة بدائية).

وحتى لو كان لزامًا عليّ الاعتراف بالحضارة التي تغزو المملكة العربية السعودية باعتبارها أمرًا حتميًا فإنني أحمل مشاعر متضاربة تجاهها، ويُعدُّ الخبير التقني الوحش الجديد للعصر الحديث، ذلك الوحش الحريص على تحرير نفسه من جميع القيود، والمهووس بحب بالذات والمتعطش للمتع المبتذلة والمدمر للثقافات التقليدية، والذي ينتقص من قدر القيم الروحية ويرى الإنسان بشكل أساس كائنًا عقلانيًا يبحث عن الراحة والربح، ويتوق إلى قوة التقنية ولكن تعوزه حكمة القدماء.

تُحقق المملكة العربية السعودية تقدمًا من خلال سلسلة من التحولات التقنية، ولا يمكن فصل التحكم والتحول في البيئة الطبيعية عن شبه الجزيرة العربية الحديثة، وتتمتع تهامة بوجود مستقل بسبب عزلتها؛ لذلك قررت الحكومة أن تجعلها تنفتح على العالم الحديث، ومنذ اتخاذ هذا القرار، جُمِعت إحصائات عن المنطقة؛ وفي السنوات بين ١٩٧٠ و١٩٨٥م، شُيّدت طرق في عسير تمتد على مساحة حوالي ٤٢٢ كيلو مترًا لتوفير الاتصال بين المرتفعات والأراضي المنخفضة، والتي شُيّدت بصعوبة بالغة، وتشهد الجسور البالغ عددها ٥٨٠ جسرًا والأنفاق التي تبلغ ١٧٢ نفقًا على مدى صعوبة هذا المشروع؛ وبالرغم من المشكلات التقنية الهائلة ثمّة طريق رائع يقلل من العقبات الجيولوجية للنفاذ إلى هذه الزاوية من شبه الجزيرة العربية، وينتهي في (الفرشة)، وفي الآونة الأخيرة شُيّدت خطوط الطاقة الكهربائية فوق الجبال، وهي التي تمهد الطريق أمام الحياة المصرية.

ومن المؤكد أن القحطانيين في تهامة -باعتبارهم نموذجًا للقبائل العربية الأصيلة- يحتلون مكانًا بارزًا في التراث الشعبي السعودي، ولكن قبل إعداد مستقبل لهم، أليس من الأولى حماية هويتهم؟ فأبناؤهم الذين أُرسلوا إلى المدارس يهربون من الماضي لأنهم نسوه، ويعتقدون أنهم يمتلكون المستقبل الذي لا يعرفون عنه شيئًا، لقد قصوا شعورهم وفق معايير تفرضها عليهم المدارس.

(رجل الطيب) الذي يأتي إلى سراة عبيدة للتزود بالمؤن يرتدي حزام الرصاص، ولكنه لا يحمل بندقيته، فعليه أن يترك سلاحه قبل أن يغادر أرضه، تمامًا كما يفعل الممثل الذي يترك ملابسه في غرفة الملابس عند مغادرة المسرح ■



الأجيال الأصغر سنًا من القحطانيين
يجب ألا تتجاوز الأكبر سنًا.





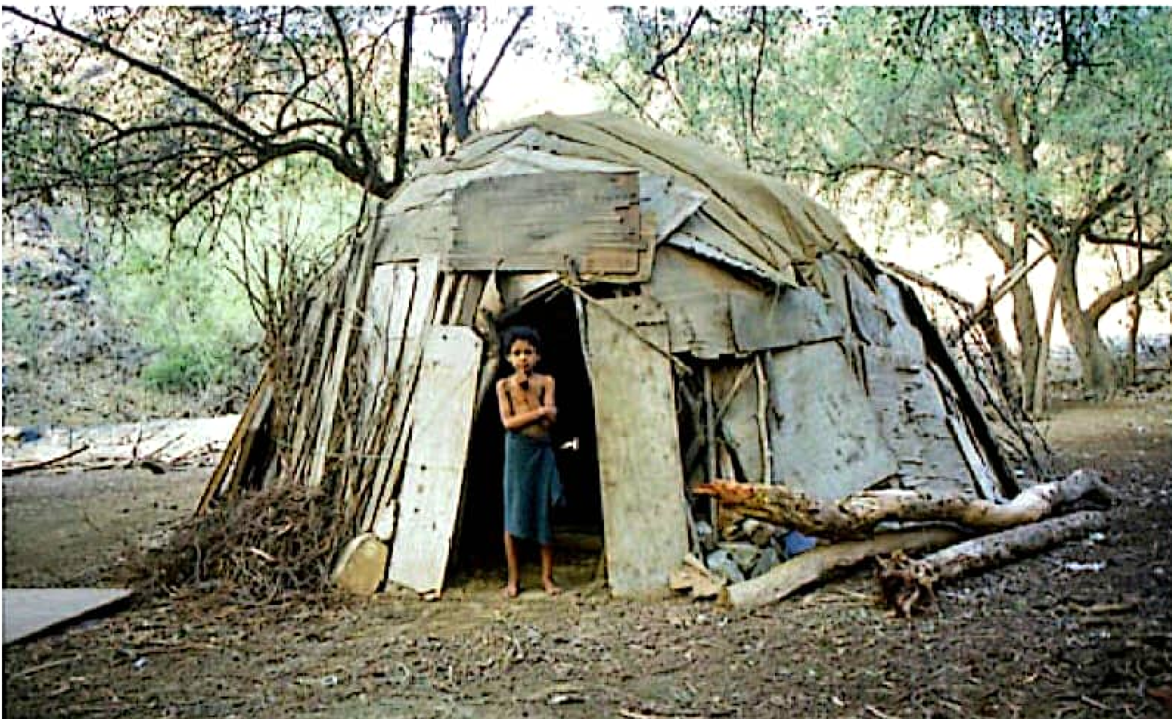
إشعال الحطب في مخيم للقحطانيين.

الرعاة ينتظرون قطعانهم في مخيم للقحطانيين.









يعيش بدو قحطان في منطقة تهامة الجبلية التي تظهر في هذه الصور الثلاث في أكواخ يسمونها عشة. وعندما يرتحلون، يُترك الهيكل ويتم نقل الغطاء فقط.





الأم تهدهد طفلها بلطف في مهد مصنوع من جلد الماعز.

بالأسفل، يُستخدم القشر الخشبي للقرع - المزروع محليًا كأوعية للماء بشكل مثالي.







فتيات قبيلة الريث (إلى اليمين) جنوب الفرشة.

هذه السيارة اللعبة التي يُمسِك بها طفل قحطاني صغير (إلى اليسار) مصنوعة في المنزل.

ساعة سويسرية (بالأسفل) مرفق بها أقراص لؤلؤية لتضفي جاذبية على زي فتاة قحطانية.









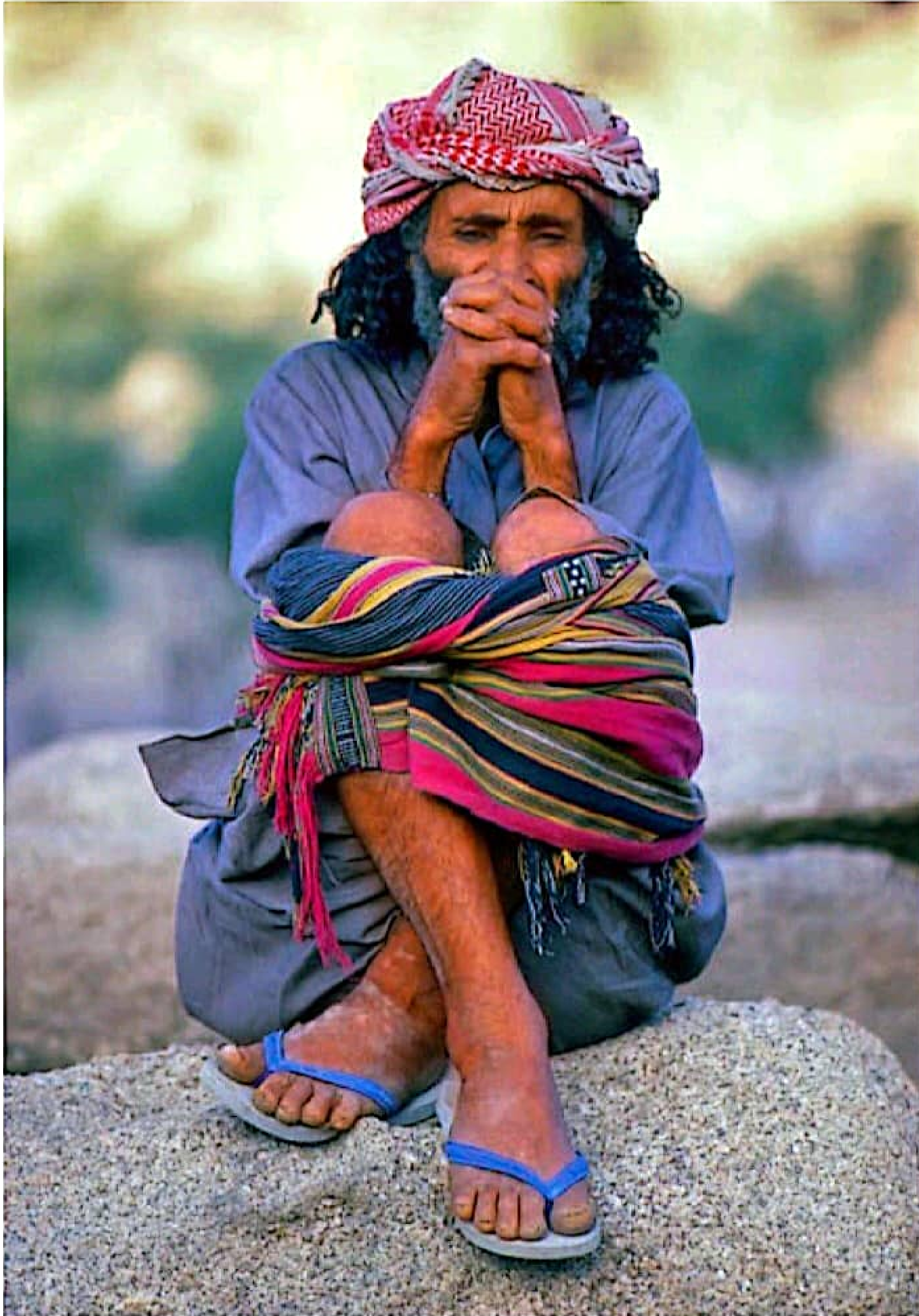
شباب من قبيلة الريث (في الأعلى) جنوب الفرشة يصنعون أغطية الرأس.



الأواني المنزلية المصنوعة من الجلود والقرع (إلى اليسار) مزخرفة بشكل جميل.

سيدة قحطانية (بالأسفل) تخّض اللّبن بأوعية القرع والحمّالة ثلاثية القوائم داخل كوخها.





من اليمين إلى اليسار:
تعبّر الصور الثلاث عن
مراحل الطفولة والشباب
والشيخوخة بين أرجاء
تهامة القحطانية.

بدو من قحطان يرعون قطيعًا ضخمًا من الماعز في منطقة تهامة الجبلية.



أطفال قحطانيون يلعبون تحت
ظلال شجرة تنين.





المسار المؤدي من أبها إلى محايل.

تتصدر المزارع المشهد في مرتفعات قحطان.







(إلى اليمين) مراعي قبيلة الريث جنوب الفرشة.

(في الأعلى) قطيع من الإبل -مشهد غير مألوف في تهامة الجبلية- يشق طريقه عبر ريف قحطان.



الفصل الثالث:

تهامة الجبلية

لرجال ألمع وربيعة في وادي ضلع

في الطريق إلى تهامة

يُعدُّ جبل السودة، أعلى نقطة في المملكة العربية السعودية، موطنًا لمجموعة متنوعة وخصبة من النباتات، حيث يختلط الزيتون البري بالعرعر الفينيقي ورُقع من التين الشوكي، ويضفي نبات الصبار مع سنابل الزهور الطويلة سحرًا على جانبي الطريق الذي ينساب أسفل حواف الجبل وصولًا إلى ريدة، ومنذ آلاف السنين، أزال السكان المحليون الغابات الموجودة في منحدرات هذه الجبال على نطاق واسع للحصول على مواد البناء والحطب وخام الصهر، وفي منطقة ظهران الجنوب -في أقصى جنوب منطقة عسير- توجد قرية الغبران التي تقع في وسط الغابات.

اختارت الطيور من مختلف الأنواع هذه البقاع موطنًا لها، ونسمع تغريدها فوق الضباب الرطب الذي يكاد يغطي بعض هذه المنحدرات بشكل دائم.

تعني الغيوم التي تتشكل قبالة الجبل والتضاريس الصعبة أن جبل السودة لا يتيح وصولًا سهلًا إلى الريف الذي يهيمن عليه، فيُسلَك طريق (عقبة الصماء) الذي ينحدر باتجاه تهامة عسير، ومن ثم إلى البحر.

يتحكم أحد أبراج المراقبة في مدخل الوادي، وتصطف القرى المهملة على جانب التل؛ حيث تتكدس المنازل فوق بعضها لتُشكِّل حصنًا، وتنحدر نحو الأطلال بطريقة غير محسوسة ولكن حتمية.

شباب قبيلة ربيعة بوادي ضلع يحتفلون ويرقصون في أحد الأعراس.



رجال قبيلة آل تليد في أثناء أداء الصلاة.

تعتبر قرية (رجال) قرية مدهشة، وبالرغم من كونها جزءًا من تجمّع محافظة (رجال ألمع) في منطقة تهامة الجبلية، فإن نمطها المعماري يذكّرنا باليمن، ولا يزال الكوارتز مفضلًا لإبراز الفتحات؛ ويَبرُز التصميم الذي يتخذ شكل رقعة شطرنج كل النوافذ والأبواب، وتستخدم في واجهات العديد من المنازل عناصر نموذجية من النمط المعماري المعمول به في الماضي، والتي يتم التعبير عنها بمواد (جاهزة للاستخدام)، يتحدث رجل عجوز بسعادة عن أصول القرية قائلًا إن مجموعة من الأفراد غادرت مأرب عاصمة مملكة سبأ القديمة في اليمن، وبعد رحلة شاقة وصلت إلى هذه المنطقة الجبلية وأسست القرية. يوجد في وسط القرية متحف رائع، وبصرف النظر عن هذا الصرح الجميل الذي رُمم دون تكبد نفقات ويُحتفظ به كمنطقة معزولة في المناطق (التراثية) المحيطة، ولا تزال مشاريع الحفاظ على التراث غير شائعة.

عند مغادرة الشّعبين يشق الطريق الجبل ويمر على القرى الصغيرة التي تلتصق بالمنحدرات الحادة وأبراج المراقبة الشاهقة والمصاطب التي تفرض إتقانًا متنوعًا على المشهد، ومن بين كل هذا يشد رجال قرية (رجال ألمع) الانتباه بفضل قبعاتهم الواسعة؛ وهي عمليًا المأوى المحمول، ووجوههم النحيلة التي تبدو أطول مع اللحى المصبوغة بالحناء.

يصادف الإنسان خلايا النحل في جميع أرجاء المنطقة، وهي مبنية بطريقة مشابهة للمنازل ولكن بفتحة كبيرة في الأمام، ويرجع الفضل في جودة العسل الذي تنتجه عسير إلى وفرة النباتات المحلية.

يحرث الأرض ثور الدرباني ذو السنام، وهو يجر محراثًا بدائيًا، ويسير الرجل خلفه بالقدر نفسه من الصبر، ويمارس الحركات نفسها، ويحمل الآمال ذاتها التي شكّلت حافزًا لأسلافه، وينثر البذور باستخدام قمع من شجرة الأثل مثبت على المحراث، ويبلغ طول الأنبوب حوالي ٨٠ سم، بحيث تكون فتحته موازية لطول الرجل، وتسقط البذور في الأرض في شق مفتوح خلف شفرة المحراث.

يرد وصف في النصوص القديمة لباذرات الحبوب وهي مُركّبة على المحراث، كما تُصوِّر لوحة آشورية من الألفية الثانية قبل الميلاد قطعة من هذه المعدات، وبمجرد حصاد الحبوب تُطحن لإعداد الطعام. وعلى الطريق خارج محايل تطحن الطواحين الدائرية بذور السمسم، وتُدار بإبل معصوبة العينين، ويمكنني في أثناء سيري على الطريق أن أسمع إيقاع الصرير المنتظم الذي يعقب النسيم العليل.

***



ينحدر الطريق الممتد من أبها إلى تهامة أسفل المنحدر الجبلي عبر الوادي، وفي عام ١٩٨٢م دمَّرت الفيضانات الهائلة سفوح الجبال، واقتحمت وادي ضلع كموجة مد وجزر، وقد حملت جميع أنواع الحطام والأشجار والحيوانات والسيارات وحتى امتدادات الجسور، كما جرفت معها أعمالًا فنية تصل إلى ثلاثين عملًا أو نحو ذلك، واختفت ملامح الطريق من الناحية العملية، فلا يمكن رؤية سطح القطران إلا في أجزاء متناثرة هنا وهناك، وبعد مرور سنوات عدة لا تزال جدران أنفاق الطريق تحمل علامات الفيضانات الكارثية، وهي علامات يمكن للمرء أن يستنتج منها أن الموجة كانت بارتفاع ثلاثة أمتار على الأقل.

يقف على حاجز الجسر شاب بدوي وسيم، وعلى رأسه تاج من الزهور، ويوقظ صوت الرياح في أنبوب مجوف به أربعة ثقوب يمسك به مثل الناي، فيبدو مثل رعاة الغنم ذوي الشعر المجعد في منحوتات الرسام والنحّات اليوناني فيدياس أو لوحات الرسام الفرنسي أنطوان واتو.

تسكن قبيلة ربيعة منطقة وادي ضلع بأكملها، وهي قبيلة بدوية ترعى الأغنام وتقيم في الخيام على تخوم المناطق الحضرية، وقد وصلت إلى أحد مخيماتهم المكسوة بقماش ذي شراريب يمتد بين شجرتين يحلّ محل مساكنهم التقليدية، إنه بيت الخصاف أو (بيت الحصير)، وهو هيكل تعريشة بأسطح متوازية.

لم يصافحني الرجل الذي التقيت به، بل مس يدي بأطراف أصابعه بخفة، وبعد ذلك وضعها على شفتيه، وكانت العملية كلها مصحوبة بصوت مص، وفي أثناء تزيينه لعينيه بعناية أمام مرآة خلعها من شاحنة لهذا الغرض، عرض عليَّ مرافقته إلى حفل زواج يُقام في جبال قريبة، فقبلت دون تردد.

قبل المغادرة تحدثنا عن أمور متفرقة؛ يستطيع أبناء القبيلة ملاحظة أبسط العلامات على وجود الحيوانات، ولكن ماذا عن النمر الذي يتردد على هذه المنطقة؟ من الواضح أنه متلهّف جدًا لرؤيته، لا أعرف عن هذه المخلوقات إلا فِراءها التي أراها معروضة للبيع في متاجر الخردوات القديمة، ويؤكد مضيفي أن عددًا قليلًا منها ما يزال موجودًا في الجبال، ويُفترض أن القليل الناجي منها قد تحصّن في المخابئ البعيدة، ولا شك أن في ذلك راحة كبيرة لقردة البابون التي كانت فريسة لها.

إذا ابتعدت قليلًا فسترى ثمرة قرع كبيرة معلقة على رأس أعواد تُشكّل حمالة ثلاثية، تجلس المرأة على مقعد منخفض للغاية، أو كرسي، وتُعلّق قدمها على المِخضّة المرفوعة بسلسلة، وتخُضّ لبن الماعز، وتؤدي الحركة الرتيبة المتأرجحة ذهابًا وإيابًا إلى أن يتحوّل اللّبن الرائب ببطء إلى زبد.



امرأة من آل تليد تُعِدّ القهوة في كوخها.

(يُباع الزبد المصفى (السمن) الذي ينتجه هؤلاء الأشخاص في أبها، وأحيانًا حتى في الطائف)، وتتضح ميزة هذه الوضعية على الفور؛ حيث تستطيع المرأة تحريك يديها في أثناء تنفيذ بعض المهام الأخرى، ففي هذه الأثناء تقوم مضيفتي بتنظيف شعر ابنتها، مقدمة نموذجًا ممتازًا على (إيقاع الوقت والحركة)، أتأمل العديد من الأفكار حتى يدعوني الرجل إلى مرافقته وتتحرك القافلة، أتبعُ مركبة دليلي بصعوبة، ونشرع في التسلق على جانب الجبل، حيث يتسم الطريق بالوعورة وشدة الانحدار بسبب الأمطار الأخيرة، إنه اختبار لمدى تحمل المركبات وسائقيها.

من خلال صوت إطلاق النار أستنتج أن مكان الاحتفالات قريب، نقوم بصف المركبات بجانب الشاحنات الأخرى بدقة عسكرية، لقد غزت الشاحنة الصغيرة عالم البدو، فكل عائلة هنا تمتلك واحدة على الأقل، قليل فقط من العنيدين هم من يتشبثون بمعتقداتهم عن مزايا الإبل والحمير، أرافق دليلي إلى خيمة كبيرة نُصِبَت مثل السرادق، وتبدو الأجواء كأننا في معسكر في حملة حربية، حيث يمتلك جميع الرجال هناك بنادق وأحزمة رصاص كاملة، وتتدلى السيوف الموضوعة في أغماد جلدية (جنبية) من خواصرهم وترتطم بأفخاذهم، تُقدم مشروبات الشاي والقهوة، ويضرب أحد الرجال المدقة في هاون القهوة الذي يمسكه بين ساقيه في إيقاع لا ينتهي.

ينهض الرجال فجأة ويغادرون الخيمة، فأسمعُ صوت نقر حيث يسحبون أقسام بنادقهم، وسرعان ما يبدؤون الرقص مقلدين مراحل القتال، يتقدم المحاربون ببطء في ترتيب يشبه حركة المروحة، ويحملون بنادقهم على أكتافهم ويشيرون بها إلى السماء، يُقلّد العريس الشاب سلوك الانتصار لمحارب شجاع، ويبدو في أبهى حلة مرتديًا سترته البرتقالية الطويلة التي تناسب وزرته، بينما يُزيّن شعره اللامع سلك مزدوج مذهّب، يسحب سيفه ويُمسك في يده اليسرى درعًا جلديًا (درقة) بحجم طبق.

يبدأ بطل الحفل في الرقص، وفجأة، يقفز إلى الأمام مثل النمر، ويغادر اثنان من المحاربين المجموعة للانضمام إليه، ويلوحان ببندقيتيهما ويدورانها، وبعد ذلك يتوقفان ويجثوان على ركبتيهما، ويحددان هدفًا ويصوّبان الرصاص على عدو وهمي.

وسط الضجيج الذي يُحدثه إطلاق الرصاص ورائحة البارود النفّاذة تثير هذه المحاكاة القتالية غريزة أساسية لأنشطة القتال الحماسية، ويعلق غبارٌ كثيف تُثيره الجماهير المحتشدة في الهواء.

عندما يتوقف إطلاق النار يندفع الأطفال نحو الأمام لجمع فوارغ الطلقات للعب بها وتقليد الكبار.

ووفقًا للتقاليد يشارك العريس الشاب في مناظرة بلاغية يُسجّلها الأطفال على آلة تسجيل للأجيال القادمة، وهي علامة حية على التسلسل الزمني في مشهد يصعب اختزاله في لحظة معينة من الزمن. بطريقة أخرى. وفي جميع أنحاء المملكة لا تزال هذه الأدوات التي نجت من الماضي تحتفظ بمكانها جنبًا إلى جنب مع أدوات الحاضر، تتوقف الاحتفالات لأداء الصلاة، فيقوم جميع الرجال بوضع بنادقهم تحت ظل شجرة، ويصطفون مولّين وجوههم شطر مكة، إنهم يشبهون حقل ذرة تتحرك جميع سنابله في الاتجاه ذاته بفعل الرياح.

يعقب هذه الروحانيات الانشغال بالغذاء الدنيوي، وينشغل الجميع بعمل كومة ركام مهيبة من الأرض، وتُجلَب كمية كبيرة من اللحم من الحفرة. وتُعدُّ طريقة الطهي هذه -الوارد ذكرها في الفصل الثاني- من التقاليد هنا، ولكن يمكن للمرء أن يراها أيضًا في أجزاء أخرى من العالم. إن العون الذي قدمته في هذا الاحتفال الذي يعود للعصور الغابرة سيمثل دائمًا أعظم تجربة لي في فن الطهي السعودي.

تقول قبيلة ربيعة إن أصولها تعود إلى أشراف الحسينية الذين جاؤوا من اليمن.

بالنسبة إلى النساء، فقد لفت انتباهي على وجه الخصوص أقراطهن الضخمة، والشراريب المربوطة بشكل مستقيم عبر جباههن، وجدائل شعرهن؛ واحدة تؤطر الوجه والأخرى في نهاية الرأس، كما أنهن لا يغطين وجوههن كذلك مثل معظم النساء في سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية.

عندما تم تقديم الشاي اعتذرت عن تناوله على استحياء احترامًا لمضيفي، وبدؤوا هم يشربون دون حرج، وفي أثناء حديثنا علمت منهم أنهم يعتبرون الموت في الفراش وصمة عار، كما علمت أنهم مجهَّزون ببنادق فرنسية قديمة يسمونها (أبو بَكْرة) ■

إلى اليسار: برج المراقبة في منطقة تهامة الجبلية في وادي حلي، وهو تحفة من تصميم الفلاحين.

في الصفحتين التاليتين: المباني الحجرية القديمة والإضافات الطينية الحديثة تمتزج في المرتفعات بالقرب من أبها.

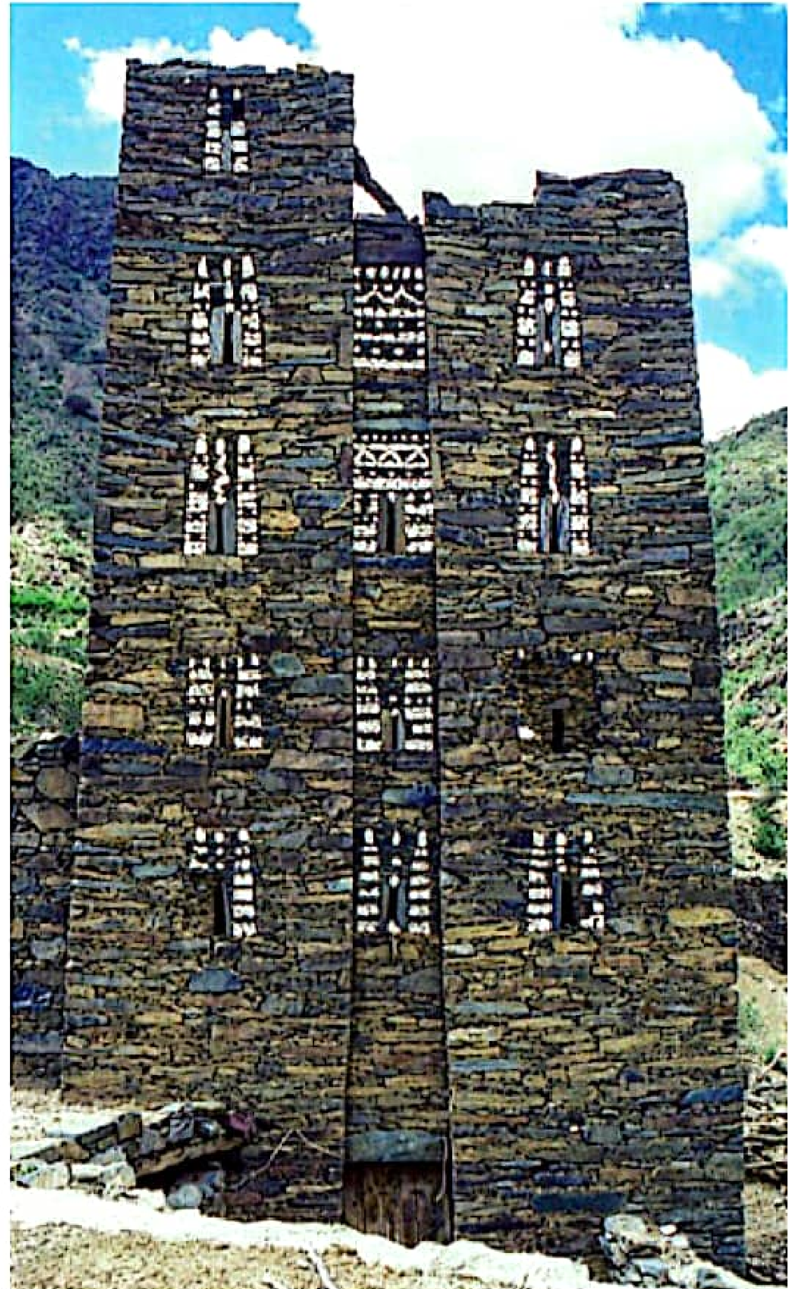


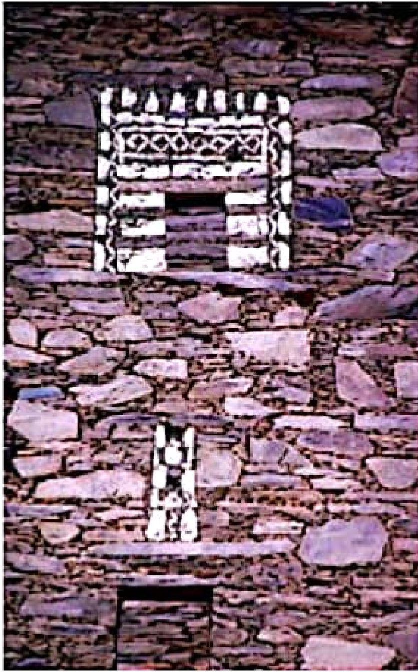


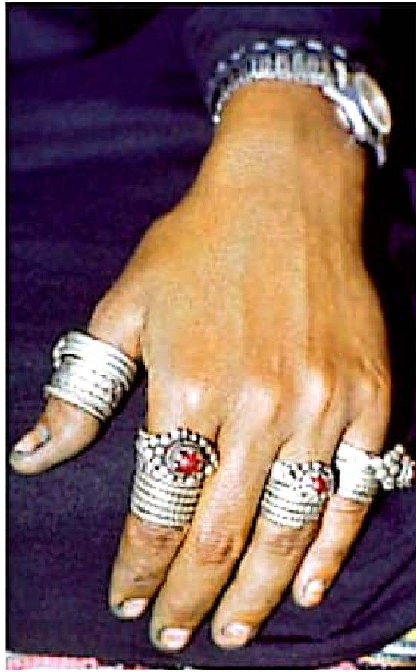




تحتفظ بلدة (رجال) القديمة بشكل لافت بالأعمال الحجرية التقليدية الرائعة في المنطقة، ويُعزز جمالها بالرخام المصنوع محليًا.



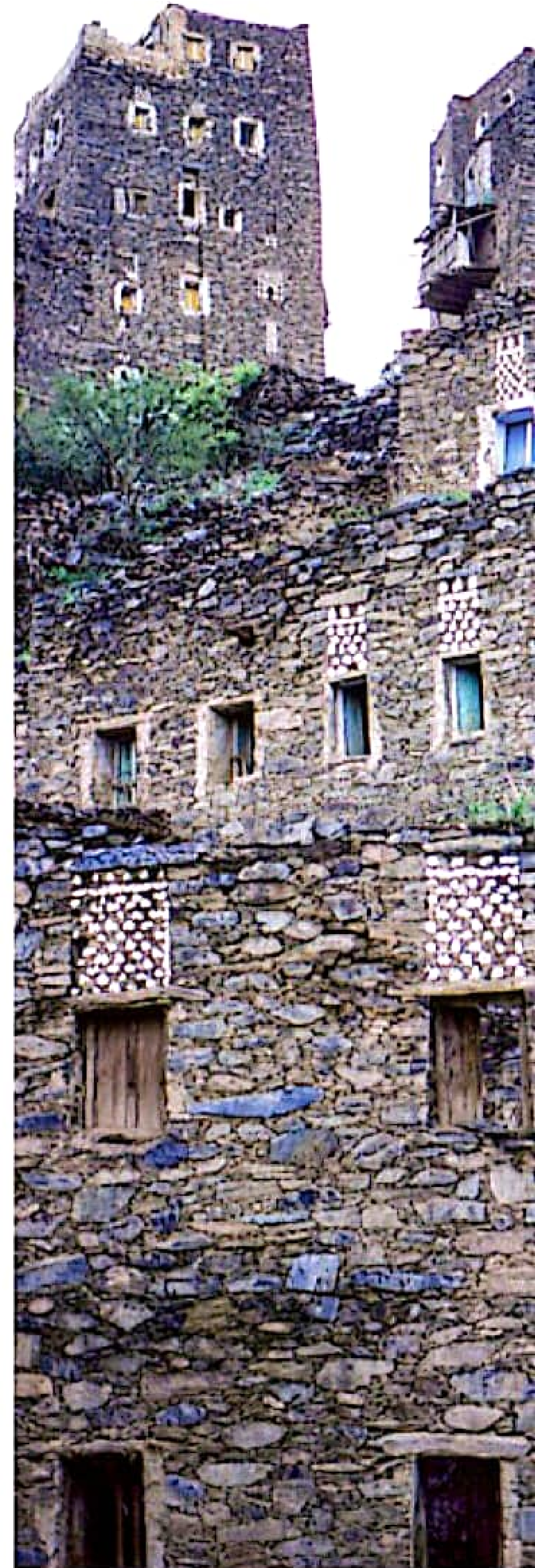








تفاصيل المباني والمجوهرات التي يعكس كل منها أناقة الآخر.





استخدام المقلاع مهارة مندثرة بين أهل عسير، وهنا رجل كبير في السن من رجال ألمع يمارس هذا الفن القديم.

شجرة الزجاجة (العدنة).





في المحيط الجنوبي من منطقة تهامة الجبلية تهبط منحدرات جبال بني مالك في حقول محددة هندسيًا وصولًا إلى مزرعة تقع فوق التلال الوعرة.







أقصى اليمين: رجال ربيعة ووادي ضلع يقيمون احتفالات زفافهم حسب العادات القديمة.

رجال ربيعة يحملون دروعًا تقليدية صغيرة من المعدن والجلد (إلى اليمين والأعلى).

سيدة من ربيعة تحمل
العلف لعنزاتها.

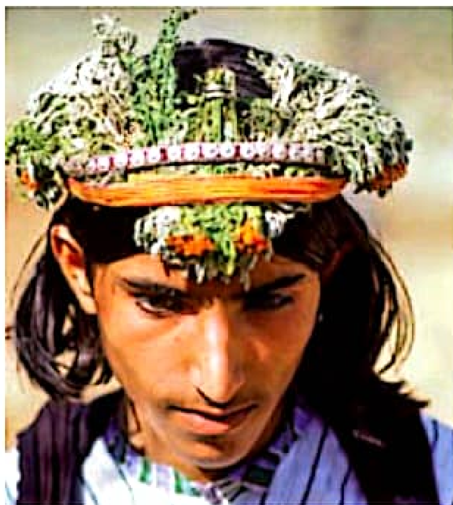


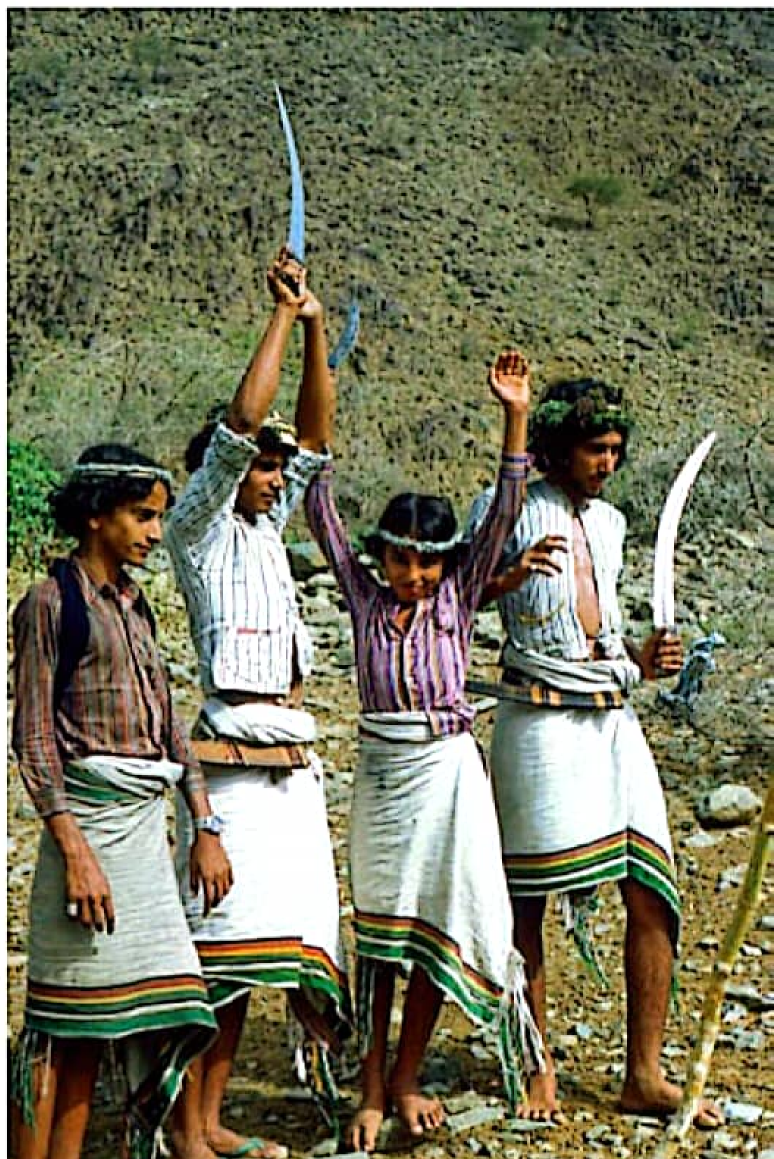


رعاة شباب من قبيلة ربيعة (في الأعلى)

إلى اليمين - يتدرب الصبية على رقصة قبيلة ربيعة.

شاب من قبيلة ربيعة (إلى اليسار).







داخل كوخ ذي هيكل جيد الإنشاء -بيت خصاف- في ربيعة، يوفر الغطاء المنسوج الحماية ضد جميع الظروف الجوية.





فتاة من ربيعة ترتدي ساعة يد بسوار فضي.



سيدات ربيعة في وادي ضلع وذوقهن
المميز في اختيار الملابس.

فتيات ربيعة يتباهين ببراعة مقتنياتهن الموروثة.

رجل من ربيعة يرتدي سترة تقليدية مطرزة.





مخيم في ربيعة يمزج بين بيت خصاف تقليدي وهياكل الخيام المحمولة الأكثر حداثة.



الملامح الرعوية العربية: راعٍ شاب من قبيلة ربيعة يعزف على ناي بسيط.







رجل من ربيعة (أعلى اليسار) يدخّن الشيشة.

طهي المندي (إلى اليسار) في مخيم بقبيلة ربيعة.

شباب من ربيعة يقفون أمام بيت
خصاف في وادي الضلع.



الأجزاء الداخلية المريحة لبيت
خصاف في ربيعة.



نقل خيمة في وادي ضلع.



رجل من ربيعة يرتدي زي احتفال كاملاً للمشاركة في حفل زفاف.





الفصل الرابع:

السهل الساحلي

منخفضات تهامة

يتمتع سكان هذه المنطقة الساحلية ببنية ضعيفة، وعادةً ما يرتدون رداءً قطنيًا يلفّونه حول الخصر يشبه (السارونغ)، ويرتدي الرجال أيضًا الطاقية (قبعة الرأس الإسلامية)، وأحيانًا تُستبدَل بقطعة قماش ملفوفة حول رؤوسهم، أو حتى قبعة مخروطية ذات حافة عريضة، وتتزين اللحى والأظافر بالحناء، والعيون بالكحل، وتخلّف كل هذه المظاهر لدى الغريب انطباعًا عامًا بالتكلُّف المثير للقلق.

يمتلئ الساحل بالأكواخ التي تستدعي إلى الأذهان مباني القرى الإفريقية التقليدية؛ إطار من أغصان مكسوّة بالطين (التعريشة والجص)، يعلوها سقف مخروطي أو بيضاوي مصنوع من قش الذرة الرفيعة الملفوف بإحكام بشبكة مُعقّدة من الحبال.

ورغم اختلاف هذه الأكواخ ظاهريًا عن تلك الموجودة بالهضبة العليا إلا أنها من الداخل تشبهها؛ ففي الجزء العلوي من القبة تُرتَّب مُعيّنات في دوائر متحدة المركز، وكلما اتجهت إلى الأسفل تميل الزخرفة إلى السرد، وتغطي اللوحات الجدران، وهي مُرَتّبة على مستويات عدة، يتسم بعضها ببراءة الطفولة والبساطة، لكن تفاصيلها بالغة الدقة، ويستمد الفنانون موضوعات تصميماتهم من واقع الحياة الحديثة، فإذا حلّقت طائرة فوق القرية فعندئذٍ يرسم أحدهم طائرة! لاشك أن حرب الخليج التي لم يرها بعضهم على شاشات

منخفضات تهامة الساحلية بالقرب من (درب) مسطحة بشكل موحد ميلًا بعد ميل.







سكان منطقة تهامة الساحلية في أكواخ دائرية مصنوعة من إطار من التعريشة والأغصان المقطوعة والطين. تُصنع الأسقف من قش الأغصان المقطوعة ويتم تثبيتها في مكانها بالحبال.





التلفاز كانت ستصبح مصدر إلهام لهم. ذكرت إحدى الكاتبات، كلودي فاين (Claudie Fayein, Village de Zorah, 1978)، بعد رحلتها في تهامة اليمن أنها رأت رسومًا (لجهاز راديو في حقيبته القماشية متعددة الألوان وإبريق شاي ووعاء حفظ الحرارة وموازين ودراجة أطفال ثلاثية العجلات وماكينة خياطة وحيوانات منزلية). وتحكي تصميمات أخرى قصة رحلة الحج إلى مكة، فتعرض الرحلة على متن القوارب والشاحنات والسيارات، وتنتهي عند الكعبة.

وتحت القبة تبرز على الجدار خطافات الخشب المطلي التي تُعلّق عليها أطباق مزينة بتصميمات زهرية وأوعية حافظة للحرارة متعددة الألوان وأكواب صغيرة ومزيد من الصفوف من مختلف الأغراض، ويعكس عددها وتنوعها ثراء المالك.

ثمة أسواق تقليدية أيضًا، فللوهلة الأولى تلاحظ الفوضى وترى الانفعالات وتسمع الصراخ وكأنك في بقعة بدائية من إفريقيا، ولكن إذا تأملت في الصورة الكاملة يمكنك تحديد الاختصاصات التي تتجاور دون أن تمتزج، ورغم الفوضى ثمّة شعور كامن بالنظام.

تشكلت أجزاء من السهل الساحلي بفعل النشاط البركاني الذي أدى إلى ظهور حمم بازلتية شكّلت تدفقاتها الحَرّة، وهي تلك الصحاري السوداء المخيفة، وتهيمن على الأفق سلاسل من المخاريط البركانية، ويُعتقد أن آخر ثوران كان في عام ١٨٢٠م تقريبًا، ويُلاحظ انتشار أشجار السنط المتقزمة في كل مكان، وكذلك أشجار الفربيون ذات الأزهار الجميلة، كما تمتد في المناطق الرملية غابة من أشجار الدوم وتفاح البحر الميت بأوراقه رمحية الشكل المنتفخة واللامعة.

ومع ذلك توجد في هذه الصحراء البركانية الممتدة بين البرك والشقيق مخيمات قليلة لبدو قبيلة منجحة، ومنذ مدة حلّت المنازل المبنية من الطوب اللبن مكان خيام الحصير التي كانت تطير مع الريح. وتتمثل قطعة الخيال الوحيدة في منزل ذي جدران مزينة ببتلات الزهور المنقوشة التي تركت الرطوبة عليها بقعًا هائلة وجعلت اللون ينتشر، ولا شك في أن هذه المنطقة ما تزال بعيدة عن الأنماط المعمارية الجميلة للمرتفعات، فنتيجة لعمليات التوطين الأخيرة فإن القرى فيها شيء من النقصان والملامح المؤقتة، وفي التطوّر الملاحظ في كل مكان بشبه الجزيرة العربية تتحول المناطق التقليدية بشكل تدريجي؛ فنجد المقصورات القديمة متروكة معًا بجانب المنازل السكنية في انعكاس شاحب لخيام العصور السابقة، فقد تم الاحتفاظ بالشكل وجرى (تحديث) المادة.

تصوروا دهشتي حين أجدُ نفسي في خيمة حقيقية سقفها مصنوع من حصائر عسلية اللون، ونخيل الدوم. قبل التدفق الكبير للسلع المُصنّعة كان نخيل الدوم ضروريًا للسكان المبدعين هنا، فمن هذا النخيل شيّدوا منازلهم وقبعاتهم وحقائبهم وحبالهم وصنادلهم، رَحَّب بي زوجان عجوزان بسرور بالغ وأكّدا لي أنهما كانا يعيشان في آخر خيمة على وجه الأرض.

أخذت أحصر القناطر والألواح الخشبية والأعمدة وأُسجّل القياسات، ما أثار دهشة مضيفي، وسجّلت كل التفاصيل كما لو كانت ذات أهمية قصوى: فهناك وعاء من القرع لخض اللّبن مُعلّق على قائم من سرير، وكل شيء معلق بعيدًا عن متناول الماعز، حتى البندقية كانت ملفوفة بعناية في غطاء خاص بها، وكذلك بندقية بلاستيكية وهي لعبة حفيده. يصل بعض الشباب وأحدهم يضع حلقة من زهور المخمل على جبهته، والآخر صبغ مفرق شعره بلون أصفر زعفراني، أشعر بحالة من السكينة وسط رجال الطيب هؤلاء معجبًا بنمط حياتهم.

يأتي أحد الفضوليين للتعرف عليَّ، كانت ذراعه اليمنى مبتورة، فيصافحني بيده اليسرى، ترددت قليلًا قبل مصافحته؛ لأن اليد اليسرى تُعدُّ الأقل طهارة في ثقافتهم، في جزر فرسان مَن يعاني بترًا مشابهًا وهم صيادو اللؤلؤ الذين تعرضوا لهجوم أسماك القرش.

ولكن لا يبدو صيد الأسماك شائعًا هنا؛ فلا تزال الشواطئ فارغة على الأغلب، وهناك بعض القوارب المتهالكة على الرمال، ترفرف طيور الفلامينجو برشاقة وكأنها حفنة من زهور الدفلى تحملها الرياح، وقد سررتُ برؤية مجموعة من طيور البجع تفرد أجنحتها عند اقترابي منها وتنطلق في الهواء لتهبط على مسافة أبعد قليلًا.

تقف قافلة من الإبل بيني وبين البحر الأحمر، وأحصر المئات منها برفقة رعاتها، إنه مشهد من أسلوب حياة لن يستمر طويلًا ■

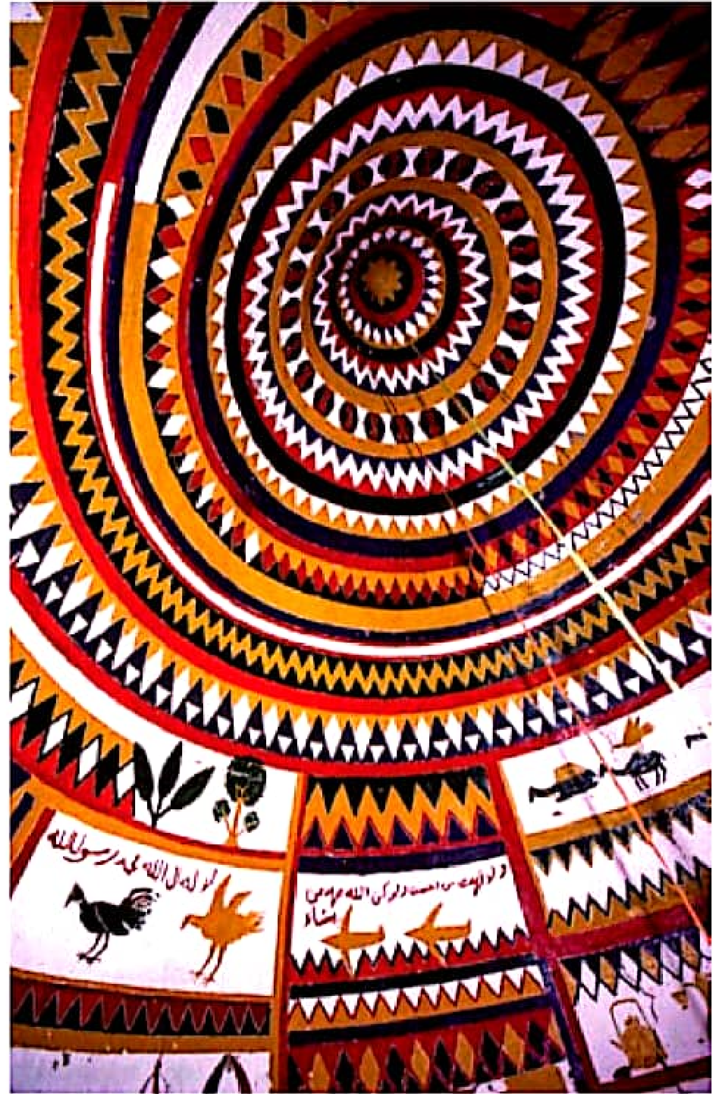
يستخرج زيت السمسم من البذور بعد طحنها بشكل تقليدي من خلال الدوران المتمهل لجمل معصوب العينين (إلى اليسار).

تُكافأ الإبل من صاحبها بالأعلاف الخضراء الموضوعة خارج منزله في تهامة الساحلية.











جرت العادة على تزيين التصميمات الداخلية لأكواخ تهامة في المنخفضات بصورة مبالغ فيها باستخدام الطلاء على الأسقف والجدران الطينية المحشوة (الجزء العلوي).

وداخل أكواخ تهامة المستديرة، غالبًا ما تُعلَّق الأغراض التي تستخدم يوميًا استجابةً للإحساس الفريزي بتصميم المنزل.



تتميز أكواخ تهامة الساحلية بالمتانة والراحة التي تنعكس على مظهرها الخارجي، وتحتفظ ببرودتها في الصيف.



يغلب الطابع المكسيكي على الرجال والنساء على حد سواء أكثر من الطابع العربي، حيث يفضلون قبعات القش واسعة الحواف لحماية وجوههم من أشعة الشمس.

لا تزال النساء تستخدم حجر
الطحن المسطح التقليدي على
نطاق واسع لطحن دقيق الذرة



يُستخدم الثور ذو السنام في تهامة لحرث الحقول وعمل ضفاف أرضية طويلة تُستخدم للري ولتحويل الفيضانات.





يُستخدم الفحم -المُصنع هنا- على نطاق واسع في تهامة للطهي والحدادة.



إلى اليسار: مزارع من تهامة الساحلية يرتدي لباس العمل.









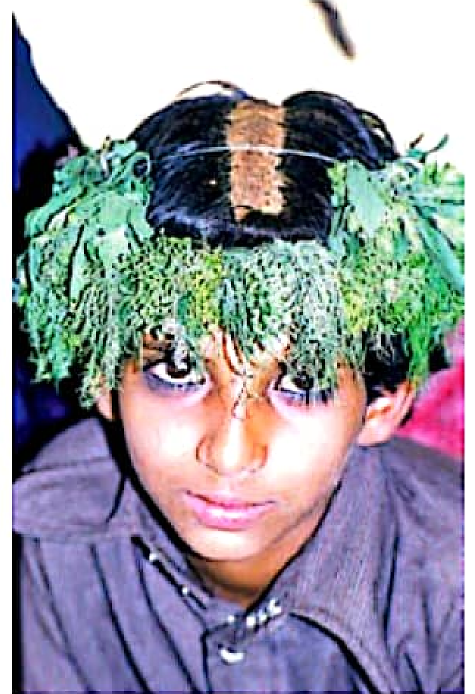
فنان محلي التقط ورسم صورة هذا الشيخ من قبيلة منجحة وهو في الحقول التي تغطيها الحمم البركانية شمال الشقيق وهو يرتدي قبعة منجحة المميزة، ويُحتفظ بالصورة في المتحف الموجود ببلدة رجال. هذا الشيخ هو نفسه من استضاف المؤلف. تم تصوير إحدى الشخصيات القبلية رفيعة المقام إلى اليسار.



يرتدي الصبية في بعض أجزاء تهامة الساحلية أغطية رأس مزهرة مماثلة لتلك التي يرتديها رجال القبائل في منطقة تهامة الجبلية.

في بعض الأحيان، قد تؤدي الممارسة القديمة، المتمثلة في الإشارة إلى وجود إبل خاصة بأحد الأشخاص في منطقة ما من خلال تزيين الأشجار بقطع من القماش، إلى حدوث أعمال شغب.





بالأسفل: سيدة من منجحة تستعرض مجوهراتها الفضية.





يتميز الجزء الداخلي من بيت الخصاف التقليدي في منجحة بالإشراق والروعة.



رجل من منجحة يتخذ وضعية أمام الكاميرا ربما ليترك صورته ذكرى للأجيال القادمة.







يضفي حصير منجحة بتصميماته الرائعة انشراحًا على قلوب العائلة.



الفصل الخامس:

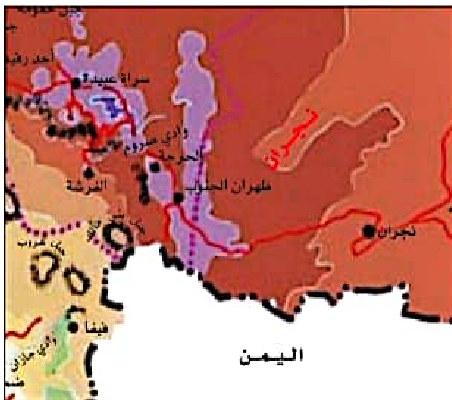
مسالك الصحراء

تسكن قبيلة حُباب البدوية السهل الواسع الذي ينحدر إلى الحدود الشرقية لمنطقة عسير، وتتسم حياة هؤلاء الرعاة الرحل في خيامهم السوداء بجاذبيتها الخاصة في تناقض مع أناقة بيوت الطين ذات الحقول التي تُروى بعناية في المرتفعات.

في هذه المنطقة يخيم أهل الحُباب حول قواعد النتوءات الصخرية التي تسطّحت قممها بسبب التآكل، ونتيجة لمحدودية المساحة المسطحة المفتوحة يضطرون إلى نصب الخيام على مسافات متقاربة، وتحظى الخيام القماشية الجديدة -التي تعرف باسم (باكستاني)- بقبول متزايد لدى البدو الرُّحل، ويتمثل الهيكل الحديث في إطار معدني شبكي سلكي مغطى بالقماش تسهِّل إزالته ونقله وإعادة نصبهن وفي محاولة لإحيائها صارت الخيمة السوداء القديمة المصنوعة من شعر الماعز مأوى للحيوانات، وذلك بعد أن اهترأت ورُقِّعت وأصبحت أقرب للمظلة.

ثمة فتاة بدوية تتعقب خروفها وتقلد بعض الأصوات لتوجيه الخراف عبر متاهة من الصخور وأشجار السنط، الحلي التي تتزين بها مدهشة، وتلمع الشمس في عينيها وكأنهما فحمتين متوهجتين في سواد القناع النصفي الذي ترتديه أو كما يطلق عليه (الملثم)، وبشكل أكثر تفصيلًا من أي مكان آخر شهد القناع النصفي لقبيلة الحُباب مزيدًا من التحسينات وتحول إلى ملابس مُزيّنة بزخارف فضية، ويُثبّت شال الرأس

سيدة من الحُباب تغزل شعر الماعز.







إلى اليمين: سيدة من حُباب تتمتع بجاذبية لباسها التقليدي، بينما يرتدي زوجها الزي السعودي الحديث.

إلى اليسار: داخل خيمة الحُباب، يتم تحضير القهوة حسب طقوس الضيافة العريقة.

في مكانه بتاج رائع، أو طيار، وهو حزام جلدي بنصف دائرة من الفضة مخيطة فيه، أشاهد الفتاة وهي تمر أمامي على امتداد الطريق ويداعب طرف فستانها الأرض، فتبدو كأميرة من عالم آخر ظهرت في عالمنا عبر كوة سحرية.

لقد وصلت لأبدد عزلة المخيم، وكانت مضيفتي سعيدة بذلك، لقد أعادت إشعال النار التي تحترق ببطء تحت الجمر بالنفخ من خلال أنبوب (يُطلق عليه مشهابة)، ثم تولت إعداد القهوة.

وقد تأثرت بالاهتمام الذي أبديته تجاه ملابسها المزخرفة، وسُرعان ما أحضرت لي صندوقًا مكتظًا بالحقائب ومربوطًا بخيط، وكذلك صناديق حلي مُزيّنة بخرز زجاجي، وصناديق أنبوبية للمصحف الشريف مُعلّقة على أطوال مكونة من خيوط دهنية ومثلثات فضية لدرء الشرور، ويبدو أن السيدة البدوية مرتبطة بعلاقة عاطفية وحسية مع مجوهراتها؛ فهي بالنسبة لها أكثر من مجرد بقايا من الماضي.

تعود السيدة إلى عملها المنزلي، وتلتقط القِربة المنتفخة المصنوعة من جلد الماعز، وتخض اللّبن داخلها بتحريكها للأمام وللخلف في محاولة لمعرفة مدى قدرتها على الاحتفاظ بإيقاع منتظم، تبدو وكأنها تحرك القربة إلى ما لا نهاية بإيقاع مكتوم الصوت حتى تصل إلى الدقة البالغة في الحركة، وهنا يتأصل الشعور بالديمومة، حيث يبدو الزمن وكأنه متوقف في هذا المخيم.

جنوب شرقي نجران

تنتهي منطقة عسير الإدارية في ظهران الجنوب عند الحدود الجنوبية لمنطقة قحطان، وبالاتجاه إلى الجنوب يتعين على المرء عبور سهل تتناثر فيه أشجار السنط قبل أن يصل إلى وادي نجران، وهو مكان مزدهر في منطقة يام، حيث توجد روابط وثيقة بين أهل المكان والبدو، ويتجه وادي نجران إلى الشرق لينتهي في رمال الربع الخالي.

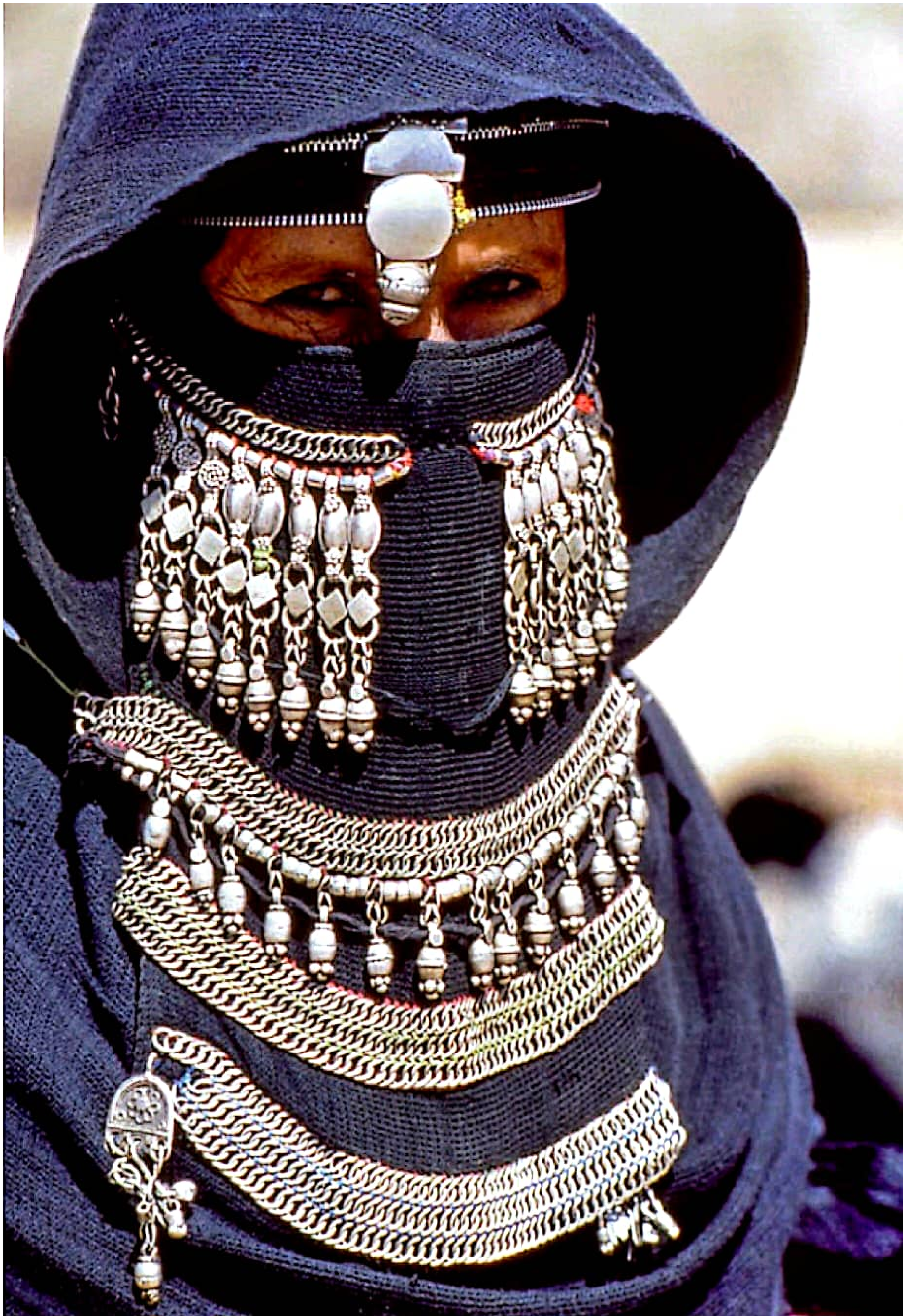
يرى كثيرون أن الطراز المعماري في نجران هو الأجمل في المملكة على الإطلاق، وتشهد البيوت المحصنة على الحس الجمالي والمعرفة بالمواد التي يصعب مضاهاتها،ويوظف المهندسون المعماريون مجموعة متنوعة من التصاميم والأشكال الرائعة التي يتناسب معها استخدام الطين، ويبدو قصر النشمي الذي رُمِّم مؤخرًا، والذي بناه تركي بن ماضي في

ثلاثينيات القرن العشرين وكأنه مصمم وفقًا لرؤية أحد معماري العصور الوسطى.

إذا كانت بيوت قحطان قد وضعت مواد تجميل فإن بيوت نجران تعرض للعالم وجهًا موشومًا، فالواجهات منقوشة بخطوط بيضاء. يجذب انتباهي تصميم من الجص الأبيض على شكل رأس رمح. بعض الزوار الغربيين يحكمون فورًا أن هناك طائرة في هذا التصميم، وفي الحقيقة أن مصدر إلهام هذا التصميم هو طائر أسطوري وظيفته إحباط محاولات الجن للدخول من النوافذ، حول السقف يمتد إفريز أبيض من أسنان التروس ملقيًا بظلال متعرجة على الشرفة. وفي بعض الأحيان تزيّن الزوايا الأربع للمنزل بقرون الوعل، ولا يقتصر تأثير التصميم على المظهر الخارجي. فمن يدلف إلى الداخل سيرى النوافذ الزجاجية متعددة الألوان التي تلقي بانعكاساتها على الأرض ببقع مُتلوّنة من الضوء، إنها حقًا تثير الإعجاب.

اليوم تحاط نجران الجميلة والواحة الخصبة في جنوب المملكة بأكواخ من الحديد المموج والصناديق والكراتين، حيث حط البدو رحالهم، ولكن حتى عندما يغادر آخر بدوي الصحراء ستظل الرياح تحرّك الكثبان الرملية ■







تفتخر سيدات الحُباب بقبعاتهن المتقنة من الفضة المحاطة بسلاسل مع القلائد والأقراص المنقوشة والبارزة. وتكون الحجارة الحمراء من العقيق أو الزجاج.



إلى اليمين: ترتدي نساء الحُباب الفساتين المشغولة بعناية خلال النهار حتى عند الاعتناء بالأطفال أو حمل طفل في سريره المحمول.

نساء بدويات من الحُباب (إلى اليسار) يبدين اهتمامًا بالغًا بألوان ملابسهن.

بالأسفل: بدوية من الحُباب تحمل مهد صغيرها وتنطلق لرعاية قطيعها.





تشترك خيمة حُباب، بسقفها المصنوع من شعر الماعز الأسود، مع الخيمة السوداء للقبائل الكبيرة التي ترعى الإبل في نجد في أشياء كثيرة.

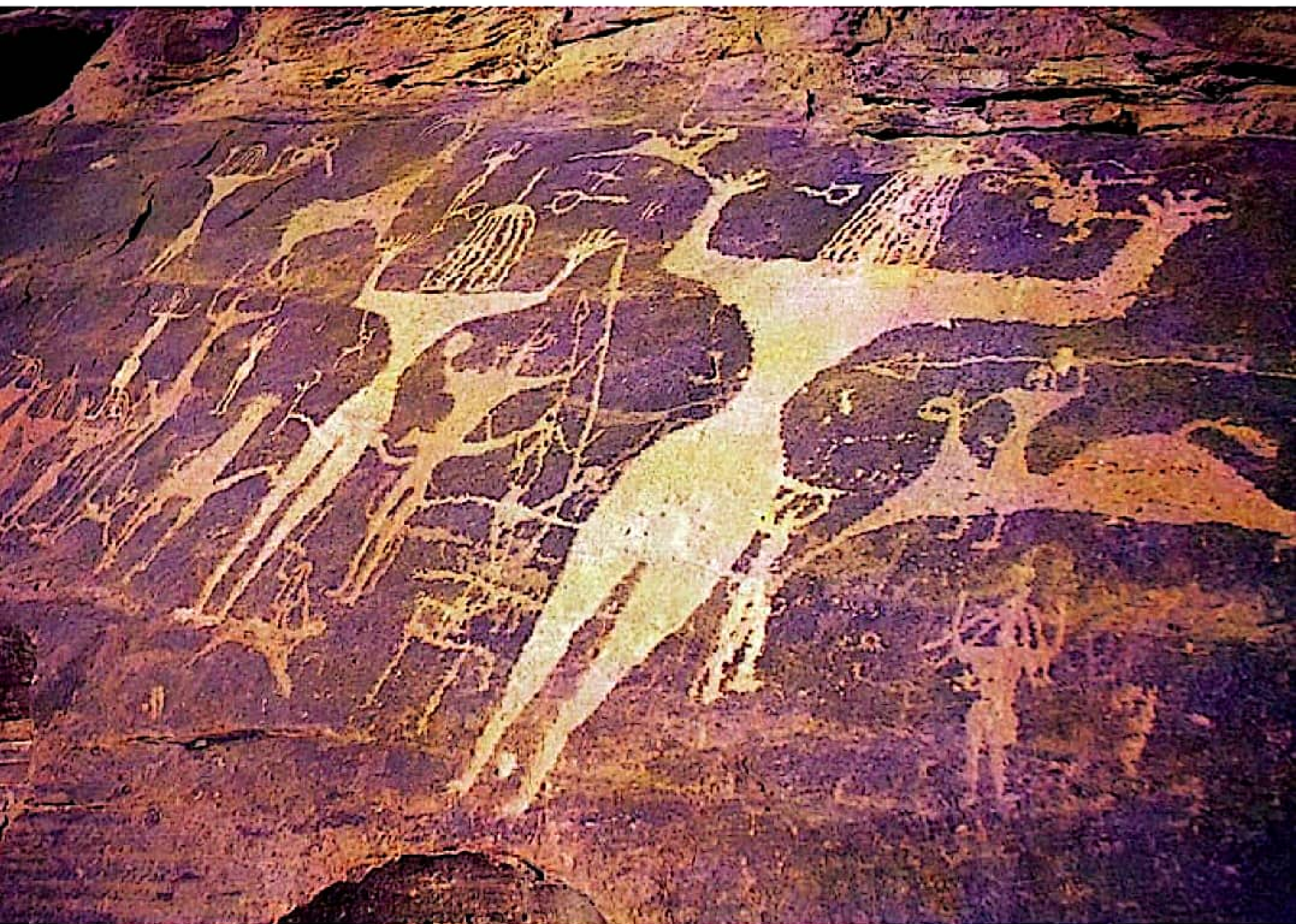




إلى اليمين: صيّاد من الحُباب.

في الأسفل: بدوية من الحُباب



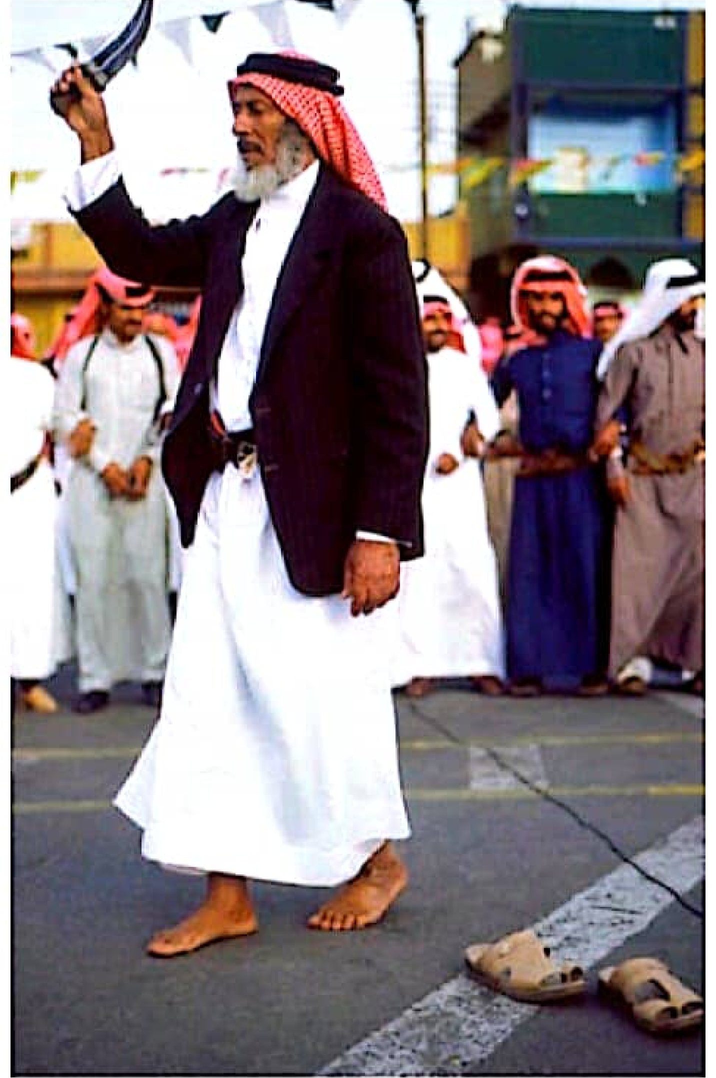


الرسوم الصخرية القديمة في
صحراء (القارة) تجمع بين
الصيد والخصوبة.



احتفالات قبيلة حُباب مع الغناء
والإيقاعات تعيد للروح إشراقها.





في الطريق إلى نجران (بالأسفل)،
قرية في منطقة ظهران الجنوب
تعكس قصة مصدر مياه يمكن
الاعتماد عليه.



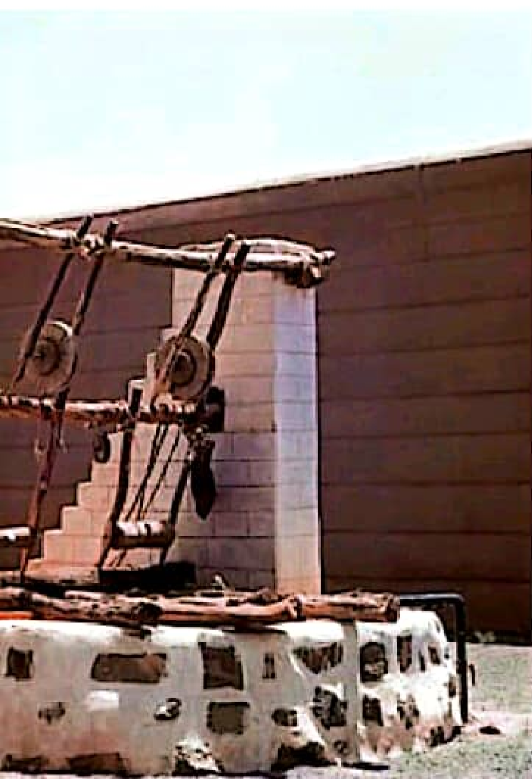
شيخ كبير من الحُباب يجلس
بأريحية.



تم ترميم حصن الحاكم في قصر
النشمي، في نجران الذي يعود
بناؤه في الأصل إلى ثلاثينيات
القرن العشرين ليصبح نموذجًا
للطراز المعماري لنجران.



تُظهر تفاصيل المباني المرممة في نجران سُلّمًا وينبوع ماء ومقابض وغرفة غسيل بالطابق العلوي.











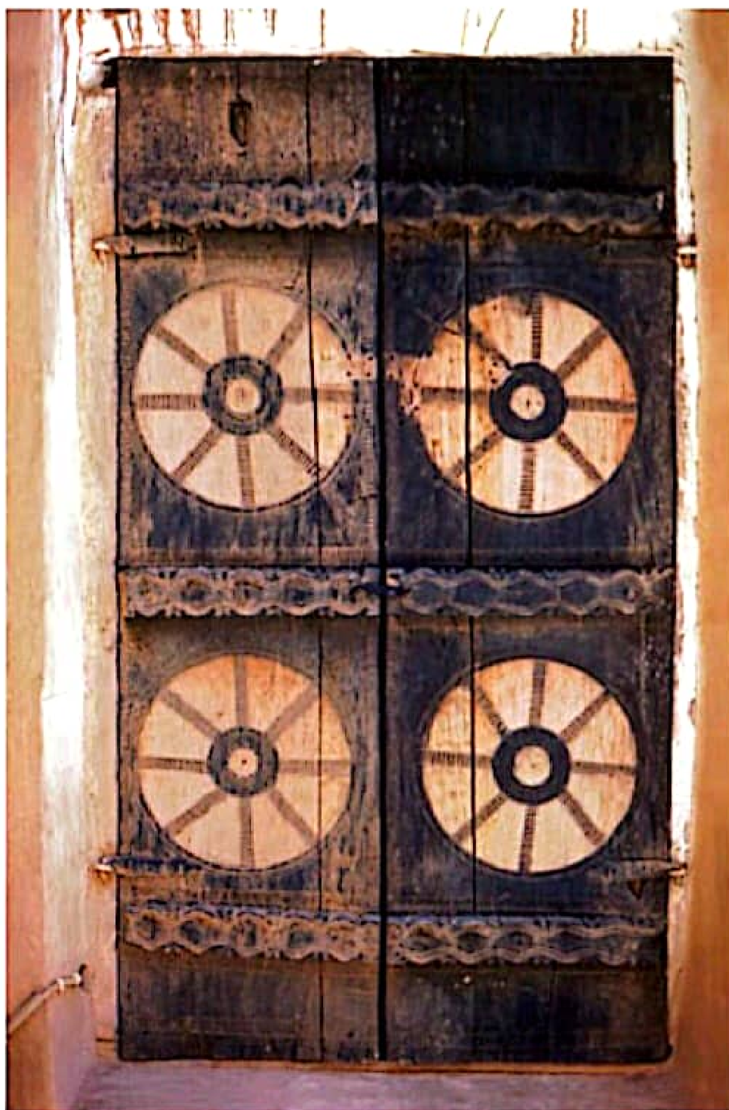
زجاج ملوّن يبرز اسم النبي
محمد صلى الله عليه وسلم.

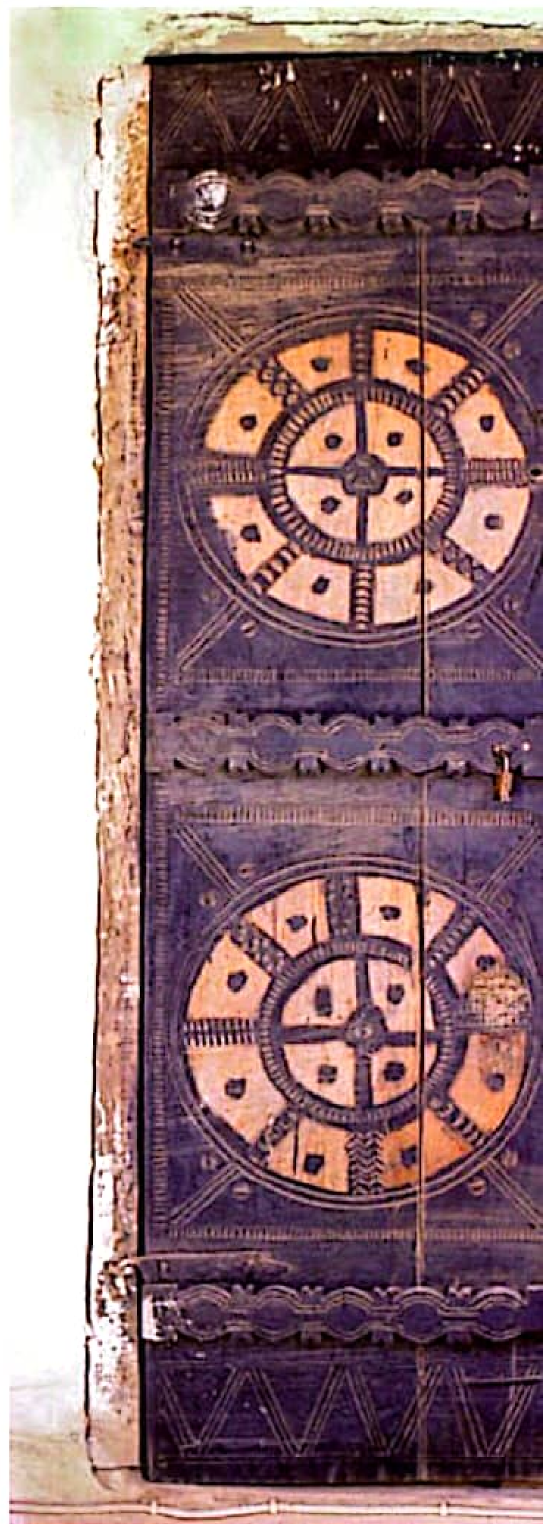






بعض الزجاج الملون في قصر النشمي من الزجاج العربي القديم. وهناك نوافذ أخرى من الزجاج الحديث.





تتنوع الزخارف التقليدية للعجلات على الأبواب إلى جانب الشعار الوطني السعودي (أقصى اليمين).

يمُرّ وادي نجران عبر هذه المرتفعات الشرقية القاحلة التي لا تبعد عن منحدر سراة عبيدة تجاه الهضبة الجافة.. ويعرض النمط المعماري وزينة الشرفة البيضاء في هذه المزرعة تقاربًا ملحوظًا.







إلى اليمين: تطل مزارع نجران المهيبة والآمنة على الوادي الرئيس الذي يُفرّغ أمطاره في الصحراء في الشرق.

في الأسفل: مزرعة تقع في وسط منطقة زراعية وافرة المياه بالقرب من مدينة نجران.



المراجع:

Moret, Alexandre 1941 Histoire d'Orient, Tome I. PUF, Paris.
Philby, H. St. J. B 1952 Arabian Highlands. Cornell University Press, Ithaca, New York.
Picon, François-Rençé 1986 De l'Asir et des Andes. Technique et Culture. Edition de la Maison des Sciences de l'Homme.
Rifa'i, Wahbi al-Hariri 1987 Asir, Heritage and Civilisation. Obeikan.
Segord, Louis 1932 La Sainte Bible. Paris.
Rutter, Owen 1937 Triumphant Pilgrimage. An English Muslim's Journey from Sarawak to Mecca. London.
Saint-Hilaire, Alain 1975 Je reviens du Yémen et t'en rapporte des nouvelles vraies. Pensée moderne. Paris.
Stone, Francine, ed. 1985 Studies on the Tihamah. The Report of the Tihamah Expedition 1982 and Related Papers. Longman, Harlow, UK.
Thesiger, Wilfred 1959 Arabian Sands. London. 1964 The Marsh Arabs.
Al-Ushban, Abdulaziz Al-Qaliba, inter-group relations, and the environmental context of Bani Shihr in south-western Saudi Arabia. Evanston, Illinois.
Zeghidour, Slimane 1982 La poésie arabe moderne entre l'Islam et l'Occident. Karthala, Paris.
Abdulfattah 1981 Mountain Farmer and Fellah in Asir, Southwest Saudi Arabia, Erlangen.
Al Saud, Noura bint Muhammad, Al-'Anqari, al-Jawharah Muhammad and Al-'Ajroush, Madeta Muhammad 1989 Abba, Bilad Asir. South-western Region of the Kingdom of Saudi Arabia. Riyadh.
Bonnenfant, Paul 1982 La péninsule arabique d'aujourd'hui. Editions du CNRS, Paris.
Burton, Richard F. 1991 Voyages à la Mecque et chez les Mormons. Pygmalion/Gérard Watelet.
Chelhod, Joseph 1985 L'Arabie du sud, Vol. 3. Maisonneuve et Larose, Paris.
Cornwallis, Sir Kinahan 1976 Asir before World War I. Oleander-Falcon, New York.
Couchaux, Denis 1980 Habitats nomades. Edition Alternative et Parallèle, Paris.
Desmet-Grégoire, Hélène 1989 Les objets due café. Presses du CNRS, Paris.
Dostal, Walter 1983 Ethnographic Atlas of Asir. Preliminary Report. Verlag der österreichischen Akademie der Wissenschaften, Vienna.
Fayein, Claudie 1975 Yémen. Petite Planète, Seuil, Paris.
Mauger, Thierry 1986 In the Shadow of the Black Tents. Tihama, Riyadh. 1988 The Bedouins of Arabia. Souffles, Paris. 1988 Flowered Men and Green Slopes of Arabia. Souffles, Paris. 1991 The Ark of the Desert, Souffles, Paris.

مسرد المصطلحات

العدنة: شجرة قوية ذات جذع منتفخ تشبه الزجاجة.
عقبات: وديان شديدة الانحدار تنتشر في مرتفعات تهامة.
بياض: طلاء جيري مائي من الجبس يُستخدم لطلاء الجدران باللون الأبيض.
بيت خصاف: خيمة مُغطاة بحصير على هيكل تعريشة متوازي الأسطح (حرفيًا بيت الحصير).
الدوم: نوع من النخيل يُستخدم في صنع الحصير.
الدخن: دخن بردي.
درة: ذرة رفيعة.
فلاحين: المزارعون غير المنتمين لقبائل.
غترة: غطاء الرأس للرجال.
حداجة: قربة تستخدم في تجميع الحليب.
حَرّة: صحراء سوداء من الحمم البازلتية.
حصن: أبراج دفاعية.
جبل: تل، نتوء صخري.
خنجر: سلاح ذو حدين مشهور في عسير باسم جنبية.
كوفية: لباس إسلامي للرأس.
مسن: حجر رحى كبير
مندي: طبق تقليدي يتكون من قطع لحم الماعز.
مشهاب: عود أو عصا في رأسه جمرة.
ميزر: عباءة تقليدية من جلد الغنم يتم ارتداؤها مع لباس من الصوف.
مظلة: قبعة مصنوعة من شبكة سلال دقيقة مرصعة بدبابيس.
قشر: شراب مصنوع من قشور القهوة بنكهة الزنجبيل.
رحى: حجر طحن صغير.
سمن: زبد مصفى.
سنجق: مركز أو منطقة إدارية: تقسيم فرعي للمحافظة.
شمة: مسحوق بني من التبغ والليمون.
شيشة: نرجيلة.
طفشة: قبعة واسعة الحواف.
وادي: قناة قاسية وصخرية لمجرى مائي في منطقة قاحلة وجافة باستثناء موسم الأمطار.

تتميز قبور أهل نجران القدامى بإطلالات على الوادي.



الفهرس

عسير
غير المكتشفة

تيري موجيه




ISBN:9786035093613
9 786035 093613